فيصل الحبيني

أبناء الأزمنة الأخيرة

مجموعة قصصية

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
مرايا

FIFA WORLD CUP
RUSSIA 2018

فيصل الحبيني

أبناء الأزمنة الأخيرة

مجموعة قصصية

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING | مرايا

أبناء الأزمنة الأخيرة

مجموعة قصصية

الكاتب: فيصل الحبيني

عنوان الكتاب: أبناء الأزمنة الأخيرة

تصميم وصورة الغلاف: يوسف العبدلله

إضاءة صورة الغلاف: عبد العزيز البلام

ر.د.م.ك: ١-٤- ٩٨٩-٩٩٩٦٦-٩٧٨

ISBN 9789996698941

الطبعة الأولى - ٢٠١٧

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

منشورات تكوين للنشر والتوزيع

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: ٩٦٥٩٨٨١٠٤٤٠+

الموقع الالكتروني: www.takweenkw.com

البريد الالكتروني: takween.publishing@gmail.com

إلى الشباب

ليس الشباب الذي انقضى،
وإنما ذاك الذي يبدأ الآن.

الفهرس

ميثاق الشاب الأخير........................ ٩
حكاية هزاع الذي أنجب والده ١١
أوحى الإنسان لنفسه ٣١
سأل نفسه سؤالا ٣٩
تعرف أمي الطريق جيدًا ٤٧
الشاب الذي يقف إزاء إشارة المرور................. ٦٥
لأنه حرّك عينيه فحسب........................ ٧٧
لا تقل لهم أنه قلمي........................... ٨٩
مأساة الدكتور أسامة الراس ١٠٧
لقد قتل نفسه وهرب ١١٥
لن يتأخر أبوك كثيرًا ١٢٥
ثمن العالم عشرون فلسًا......................... ١٣٥
نسترجع أحلامنا في تسكعاتنا الأخيرة................. ١٤١

ميثاق الشاب الأخير
ما بعد المقدمة، وقبل الحكاية

لقد رأيت الشاب الأخير ذات نهارٍ ضبابيّ، شكّلت فيه الغيوم السميكة جدارًا فضّيًا يحول بيننا وبين ضوء الشمس. كان يقف على حافة الرصيف، ممسكًا بطرف دشداشته البيضاء، شماغه مسدولٌ على كتفه، مرتديًا طاقيته والعقال يعتليها، حانيًا رأسه على كتفه الأيمن، متجمّدًا، يتأمل سرعة السيارات من أمامه. احتاج المشهد لتأويل كي يخرج بمعنى، لكي يخضع للمنطق المشترك، ويتخلص من شراسة لامفهوميته؛ اللمعة على سطح حدقته، سرعة رمشه لعينيه، الطريقة التي يتنفّس بها من فمه المبتسم، شعره المخصّل والمنسدل من تحت طاقيته، غزارة سكونه المستفزة، تلك الإيماءة المعقدة، ما معنى هذا؟ قد يبدو للوهلة الأولى كشابٍ يريد عبور الشارع، لكنه لم يكن كذلك. لم يجّرب للحظة أن يخطو خطوةً واحدة، ولم يتلفّت قط. إنه شابٌ يقوم بتصرفٍ ما على الرصيف فحسب. لا يشحذ الانتباه. متسمرًا في هيئةٍ غير مفهومة، متلبسًا وضعية مدروسة، مقصودة،

تعبّر عن شيءٍ أو غايةٍ ما. لم هذه الوضعية الملغزة بالذات؟ هل ينتظر شيئًا؟ هل كان يصلي لصالح ديانة منغلقة ومكتفية بذاتها؟ هل يبشّر بحركة فنيّة مستقبليّة؟ هل يتشبّه بالجماد لمراوغة شيءٍ يطارده كالمصير أو الموت؟ هل يريد أن يقلّد مفهومًا مجردًا كالخواء أو اللاشيء؟ هل يبتغي أن يقول شيئًا، كرسالة نبويّة حاسمة؟

حكايته طويلة، وستُسرد بالتفصيل يومًا، ولكن ما يهم في هذه اللحظة هو الإشارة بأنه المبشّر بمجيء الجيل الختامي. إنه واحدٌ منهم؛ أولئك الصغار، الذين يؤمن كلٌّ منهم بأنه ذاك الشاب الأخير نفسه، حصيلةُ فكرة البشرية، رسول الجين الأقدم، ولا أحد يشاركه تلك البطولة. لم يأتوا من قبل، ولن يأتوا أبدًا. إنهم هنا، إنهم نحن؛ قاتلو آبائهم، جاحدو الانتماء، مُدوّخو الزمن، مشوّهو الواقع، ثاقبو المكان، محرّضو الانقراض، مُتلفو الأثر، طافحو الذوات، المتنصّلون من النص، طرائد القانون، ضحايا الحدث، متسكّعو الذاكرة. يقولون إننا نقبع في اللحظة الختامية دائمًا، لأنهم لا يفتؤون يشعرون بالنهاية تجري في دمهم. انظر لأعينهم كيف تسطع، وستدرك بأنهم يشاهدون العالم بنظرةٍ قديمة، كما لو كان المستقبل بأكمله قد حدث.

حكاية هزاع الذي أنجب والده

كان هناك رجلٌ يدعى هزاع، ولا أحد يدعوه هزاع، بل بوسعود، رغم أن لا ولد له يدعى سعود، ولكنه اسم والده الشهيد فحسب. بدأ الأمر كمزحة، واعترف مرة بأنهم كلما نادوه ببوسعود، كان دماغه يلجأ لتصوير شكل والده بالصورة المعلّقة في صالة المنزل؛ بالأبيض والأسود، أنفٌ طويل، عينان جاحظتان، أذنان طويلتان، شامة على الخد الأيمن، وشفاهٍ مزمومة. كان ذلك الوجه نقطة الارتكاز لذلك الاسم. حتى أن فكرة الابن ذاتها كانت مجرّدة، إذ أنه لم يتزوج بعد، ولم يفكر في خوض الأمر جديًا. وهكذا، كان يرتعب أحيانًا من فكرة أنه أبو أبيه، فشكّل له الأمر شرخًا على سطح المنطق.

عندما تزوّج، كان موضوع اختيار اسم أول ولدٍ له خارجًا عن سيطرته. وعمومًا، أراد أن يأتي سعود هذا لينتهي العبث، وينسى فكرة أن اسم سعود لا يشير إلا لوالده فقط. خطبت

له أمه بنت عمته منيفة، والتي أصبحت حبلى بعد شهرين فقط من زواجهما. عندما أخبرهم دكتور السونار بأنها حامل بولد، نهض هزاع وقبّل رأس منيفة مهلّلًا بتأتأة السعداء: سعود قادم أخيرًا! واستطاعت منيفة المستلقية على السرير أن تلمح ابتسامة هزاع وهي تختفي تدريجيًا وتُستبدل بأمارات الرعب. ما زالت تذكر بالذات حبة العرق اللامعة التي تكوّنت سريعًا على صدغه القمحيّ، إلا أنها لم تُسند الأمر إلى أي معنى. مرّ الصيف الطويل، ولم يذكر هزاع شيئًا عن الولد. كان يقول الولد ويكتفي بذلك. ولم تلاحظ منيفة بأنه كان يتجنّب ذكر الاسم، ولكنها لاحظت بأنه أزال صورة والده من حائط الصالة متعذرًا بأنه سيغير إطار الصورة، وظلّ ذلك الحائط فارغًا. كما أنها عاينت نظراته الاختلاسية الطويلة لبطنها المكتنز وهما يجلسان على الكنبة أمام التلفاز، وهروبه من الحجرة كلما خلعت ملابسها.

في واحدة من غرف جناح الولادة في مستشفى الهادي، جاء النبأُ أخيرًا. كانت غرفة الاستقبال تعجُّ بالزوار. أول ما لفظته أم هزاع عند رؤية الطفل: ما شاء الله، له أذنا وأنف أبيك، الله يرحمه. ارتعدَ هزاع عندما تناهت هذه العبارة إلى مسامعه. هل أنجب أباه فعلًا؟ أعطته أمه الطفل ملفوفًا بمهاده. كان نائمًا بوجهٍ أحمر، طريّ، تعلوه خصلات مبللة ملتصقة برأسه. راح يتفرّس في الوجه الصغير الذي تكاد أن تخرج ملامحه الكبيرة عن حدوده؛ لقد توفي والده قبل ثلاثة وعشرين عامًا، ولا يستطيع

أن يسترجع سيماءه تمامًا إلا من الصور الضبابية في ألبوم العائلة، وتلك الصورة المعتّقة التي أزالها من الصالة، ولذا وثق برأي أمه بخصوص الشبه، خاصه حين ساندت هذا الرأي عمته أم منيفة.

عندما شردَ من غرفة الاستقبال إلى ممر المستشفى، لمح زُمرةَ رجالٍ يجلسون على كراسي الانتظار، يبحلقون به. إنهم آباءٌ حظوا لتوّهم بأبناءٍ جدد على ما يبدو. ورغم أنهم لم يكونوا جالسين بجانب بعضهم، ولا يبدو للناظر أنهم يعرفون بعضهم بأيِّ شكلٍ من الأشكال، إلا أنه توجّس من نظراتهم المتواطئة، وخشي أن يكون قد تورّط معهم في جرمٍ ما، وبأنه الآن عضوٌ في أخويّةِ الرجال الذين ينجبون آباءهم، ويعيدون مرة أخرى عجلة التاريخ، وواجبٌ عليهم أن يحفظوا فيما بينهم هذا السرّ.

هرعَ مبتعدًا قبل أن يكلّمه أيٌ منهم. أراد أن يتوارى عن الجميع، ويفكّر وحده. نزل درجات السلالم رُباعًا كما كان ينزل في رأسه كذلك، يُفكّر. لقد عاد أبوه إلى الحياة إذًا، وكأن الأحفاد هم وسيلة الآباء الخبيثة لكي يعودوا مجدّدًا، ويراقبوا ما يفعله أبناؤهم خلسة.

توفي سعود عندما كان هزاع في السابعة من عمره إبان الغزو العراقي، ولم يحتفظ رأسه الصغير بأي ذكرى عنه. لطالما كانت فكرة غريبة أن يكوْن له أب؛ هذا الشكل الحميمي من أشكال السلطة. هل سيكون والده راضيًا عنه إن رآه في هذه الحالة؟

لقد كان سعود شهيدًا في الحرب، بطلًا، وظلّ شبح البطولة هذا يلاحق هزاع طوال عمره، حتى أنه فقد اسمه وأصبح تلقائيًا: بوسعود. لم يكن أخوه منصور أبا سعود كذلك، بل ظلّ منصور، رغم أنه ابنه كذلك، ولكن وحده هزاع من حمل هذا الإزر على ظهره، كونه الأكبر بينهما. لقد أضحى وجوده بأكمله دلالة على آخر، أثر لوجود شخصٍ رحل. أن تكون ابن البطل يعني أن معايير نجاحك تختلف تمامًا. إنهم يطالبونك دائمًا بشيءٍ أكثر إبهارًا. وفكَّر هزاع: ما الأكثر إبهارًا من الموت؟

خرج من باب مستشفى الهادي الرئيس. كان الوقت يعقب أذان العشاء بدقائق. استنشق من الهواء رائحة البنزين، وراح يتأمل نهر السيارات المتدفّق أمامه على طول شارع الملك فيصل بن عبد العزيز السريع. على اليسار أضواء صفراء وزينون تقترب، وعلى اليمين أضواء حمراء تبتعد. أخرج علبة السجائر من جيبه، استلّ واحدة وراح يدخن. يدخّن ويفكّر. أعاد هزاع السؤال مرةً أخرى: ما الأكثر إبهارًا من الموت؟ لِنرَ: لقد دخل الجامعة، ودرس في كلية العلوم، تخصّص جيولوجيا، تخرّج بمعدّل جيد جدًا، والآن يعمل في القطاع النفطي، متزوّجٌ من ابنة عمته، وأنجب ولدًا. وبعدين؟ لا شيء. ولكن ما الأخطاء؟ لن يدري والده عن أشياء عدة حدثت، لن يدري أنه شتم أمه مرة لأنها اضطرت كي تحضر اجتماع أولياء الأمور الممتلئ بالآباء. ولن يدري بأنه كان يلفق التهم لأخيه منصور وزملائه كي يحظى

ببعض الانتباه من أمه والأساتذة. ولن يدري كذلك بعدد النساء اللاتي دخلن ديوانية المنزل ليمارس الجنس معهن، قائلًا لهن: أنا رجل البيت، أستطيع فعل ما أشاء. وإذًا زمن الحماقات قد ولّى، وأضحى الآن رجلًا رصينًا، جاهزًا كي يراه والده، ويقيّمه.

وها هو هزاع يرى والده صغيرًا، لا حول له ولا قوة، يبكي أمامه، يوسّخ نفسه، يغسّل له مؤخرته الصغيرة الحمراء، يشتري له الحفاظات، يطهّر عضوه الذكري الضئيل، ويشم فضلاته على الدوام. ولكن أكثر ما أربكه كان سماع البكاء مستمرًا، والذي لا يتوقّف حتى تضع زوجته ثديها في فم والده، ويرضع، ثم ينام هكذا في حضنها. لم يكتف أبوه بسرقة كل شيء منه منذ الطفولة، حتى سرق منه الآن حضن زوجته.

عندما عاد أخوه منصور من السفر لاحقًا، تهلّلَ وجهه، وحمل الطفلَ وصاح منغّمًا صوته: هلا بسعود، هلا ببوهزاع. فما كان من هزاع إلا أن انتفض من مكانه. قام وشرعَ للديوانية وأوصد الباب على نفسه. جلس على المساند الأرضيّة، ونظر جاحظًا إلى النافذة التي يتسلل من خلالها أشعة شمس العصر البرتقالية. اللعنة، هل سينجبه ابنه؟ هل سيجيء مرة أخرى عندما يُرزق ولده بولد؟ بهِ هو؟ شعر بدوارٍ في رأسه. ما الذي يحدث هنا؟ ولكن عندما عاد أبوه، كان أبوه ميتًا فعلًا. أما هو فقد يظل على قيد الحياة حتى تلك اللحظة التي سينجب فيه ولدهُ ولدًا، فإذًا كيف يعود مجدّدًا وهو ما زال هنا؟ هل سيتحول إلى

اثنين، أم قد يموت قبل ذلك حتى تضحي الأمور أكثر منطقية؟ اللعنة، أي منطق وأي بطيخ في كل هذا؟

حدق مرة أخرى في كهرمانية أشعة الشمس من النافذة، كم أحب هذا اللون الغارب! لا يدري أي الفكرتين أكثر رعبًا، أن يصبح المرءُ اثنين، أم يعلم علم اليقين بأنه سيموت في أربعيناته، أي بوفاةٍ غير طبيعية، بل دخيلة؛ بمرضٍ ما أو حادثة. ارتعدت مفاصله. موت المرء فكرة مجردة، بعيدة عن الملاحظ، وعسيرة على التصوّر، ومن المؤلم أن تتجسّد هكذا بكل هذه الصراحة، إلى درجة أن تعيش معك، تغذيها وتربيها، وتسميها: ابنك.

إنه، وهو الجيولوجي، يعلم أن هذا قد يحدث في الطبيعة. قد تتلخبط طبقات الأرض في منطقة معينة، وتنبثق طبقة قديمة من بطن طبقةٍ أجدد، ويصعد المندثر فوق الحي، ويتناور التالد ليكشف عن نفسه على السطح، ويُدفن الحديث تحته إلى الأبد. إنها الزلازل، ويبدو أن زلزالًا قد ضرب سلالته.

رأى ولده سعود يكبر يومًا بعد يوم، وسنةً بعد سنة، ولم يكن يرى إلا بذرة موته تنضجُ أمامه. اتهمته منيفة بأنه أبٌ سيّئ، لا يجالس ابنه. وتجرأت في القول: ولا تطيق رؤيته. ولن تنسى منيفة ذلك الصباح، عندما كان سعود في المرحلة الابتدائية، وسمعت دوي كوابح سيارةٍ في الشارع. انقبض قلبها عندما أدركت أن هزاع وابنها سعود قد خرجا للتو من البيت. لبست شيلتها ونزلت السلالم وانطلقت حافية تفتح باب المنزل، وإذا

بسعود ساقطٌ على الأرض إثر الاصطدام، يتفقده السائق الذي ترجل من المركبة. سُرق صوتها وراحت تفتّش عن هزاع في هذا المشهد، وكان هزاع منتصبًا على الرصيف على يمينها، بجانب باب سيارته الكابرس، ينظر للحدث بشرودٍ حيادي، لمدة تعدت الدقيقة ربما، المدة ذاتها التي تطلبت من منيفة للخروج. لم يرجع هزاع إلى وعيه حتى رأى منيفة تركض في الشارع ناحية ابنها الممدد، والشيلة قد سقطت على الأرض، فركض مباشرةً خلفها ببرودٍ مفاجئ.

لم يبال حتى عندما فشل سعود في مادة الرياضيات في المرحلة المتوسطة واضطر إلى أن يعيد السنة الدراسية، لم يكن يعني ذلك إلا سنة إضافية لحياته. تأخيرًا لزواج الولد المحتوم، أو الأب، أيًا كان. اقترح عليه كذلك عندما أنهى الثانوية العامة بأن يدرس في بريطانيا أو أمريكا، إذ أنه يعلم بأنه سيسجّل على الأقل في فصلٍ دراسيٍ واحد لدراسة اللغة، ما يعني: أشهر مجانية لحياته.

ولكن المحتوم لا بد أن يحدث في جميع السيناريوهات. تزوّج سعود الابن في آخر الأمر، ودخل هزاع في مرحلة الخطر. إنها شهورٌ قليلة حتى يأتي هزاع الحفيد، ويا لها من شهور! في تلك الفترة بدأ هزاع يتصرّف تصرفات أرابت زوجته وابنه؛ راح يأكل كميات كبيرة من التمر دون القلق من أن يصاب بالسكر، يشرب الشاي بعد الطعام رغم علمه بأن ذلك قد يؤدي للإصابة بفقر الدم، ينام بأبرد درجة للتكييف ولا يفكر بهشاشة العظام، ولا

يتوقف أبدًا عن التدخين لدرجة أن زوجته لم تعد تراه إلا من وراء غشاءٍ من دخان.

رزق سعود بولد، وسماه كما دعته التقاليد: هزاع.

كان هزاع جالسًا في الديوانية، متكئًا على الكنبات الأرضية، وأمامه دلّتا القهوة والشاي وعلب السجائر. في هذه الساعات من النهار كان يفضل إطفاء المصابيح الكهربائية والاكتفاء بنور الشمس المائلة وهي تملأ المكان من خلال النافذة العملاقة. سمع رنة موبايله وهي تثقب الهدوء من حوله، وما كانت إلا مكالمة من ابنه سعود. جاء صوته عبر سماعة الهاتف مبتهلًا وهو يقول: يبا، هزاع وصل بالسلامة! فما كان من هزاع إلا أن أغلق الهاتف ورماه، وزاول جلسته الصامتة بهدوء. أغمض عينيه، وانتظر ثوانيَ قليلة. شعر بقلبه ينبض لا يزال. انتظر توقّفه، إلا أنه فاض بقرعاته الصاخبة. تنهّد. لقد ولى احتمال أن يموت إذًا، ولم يبقَ إلا الخيار السريالي الآخر: الانشطار الثنائي للذات. لم يفزع، كل ما فعله كان متابعة الجلوس وكأن شيئًا لم يكن. أشعل سيجارةً ونثف الدخان متلذّذًا بحرقة النيكوتين في صدره. لا تبدو فكرة انشطار الذات مرعبة مقارنة بالموت. سيظلّ هنا على الأقل، ولو بشكلٍ جزئيّ. صبّ لنفسه استكانة شاي، وكان لصوت انسكاب الشاي خريرٌ لم يعرف لذته من قبل، وبرائحة الهيل انتعاشٌ وكأنه تذكّر بأن للمرء حاسة منسية تدعى الشم. كان فضاء الديوانية زاخرًا بأشعة العصر البرتقالية، وكأنه هو

والديوانية بأكملها في قاع استكانة الشاي الدافئة. ماذا بعد؟ راح يركّز بوعيه، أراد أن يصطاد تلك اللحظة التي ستتجزأ بها ذاته، أو يفقد بها جزءًا من وعيه لصالح الطفل الجديد، أيًّا كان، ولكن ثمة أمرًا خطيرًا سيحدث، وعليه أن يكون متيقظًا حتى يمسكه، وربما يفهمه.

اتكأ على يديه الهزيلتين اللتين بدأتا تضعفان، وأسرع إلى مرآة الحمام. لم يختر مرآة حجرته بل مرآة الحمام لأنها أوضح وأكثر خصوصية. أغلق الباب من ورائه، واتكأ بيديه على الحنفية وقرّب وجهه من المرآة بشكلٍ لم تعد عينه ترى إلا نفسها وهي ترمش بارتعاب. تراجع قليلًا وهو يجاهد ليتنفّس ببطء. متى بدأ يتنفّس بهذه السرعة؟ أغمض عينه. أطال الإغماض وهو خائف أن يفتحها ويجد انعكاسه وقد صار نصفَ جسدٍ ونصف رأس. فتح عينيه فزعًا من الفكرة، وكل ما رآه كان نصفَي جسد، ونصفيّ رأس. فتح صنبور المياه وغسل وجهه بماءٍ بارد. تنفّس الصعداء ونظر لانعكاسه بريبةٍ مطمئنّة. لا شيء إذًا. رجع إلى الديوانية، وقبل أن يجلس على المساند الأرضية، قطع سَكينته دخول منيفة من الباب وهي تهلّل: مبروك! مبروك! وهو ينظر لها بحيرة من لا يفهم شيئًا مما يحدث.

سبقته منيفة بدخول غرفة الاستقبال. أما هو فقد ظلّ أمام الباب قليلًا، غير واعٍ لما سيواجهه. ترامت له الأصوات من الداخل، ولم يستطع أن يميز صوتًا منها. دفع الباب، وكان

المكان ممتلئ بأناسٍ لا يعرفهم، أو بالأحرى لا يذكرهم. جلس على أبعد كرسي في الزاوية، واستدعوا الممرضة لكي تجلب هزاع الصغير. كان الجميع يحيطون به، يباركون له، يقبّلون رأسه، يبتسمون بوجهه، بينما لم يستطع هو أن يحرّك عينيه من على الباب الذي قد تلج من خلاله الممرضة في أي لحظة. من هؤلاء؟ وما الذي يفعله هنا؟ كان المشهد من حوله ملغّز. شعر بأن شيئًا ما يبدأ، شيئًا يشبه الشيخوخة والندم. طُرق الباب، واتّسعت عينا هزاع وهو يرى الممرضة تدخل، دافعةً سرير الصغير من أمامها وكأنها تدفع حجرُ قبره.

عندما رمقَ الطفل لأول مرة، شعر بأن ثمة من ينفخ على شعيرات ذراعه التي استقامت فجأة، وكأنها تريد أن تطل برأسها على ما يثير خوفه، متجمعة وهي تنظر نحو الكارثة، متمتمة: ما هذه اليقظة الجماعية، مم هو خائفٌ صاحب أرضنا وما الذي جعل رياح الخوف توقظنا؟ ولكن كل ما شاهدته كان طفلًا صغيرًا هادئًا، نائمًا وسط سريرٍ صغير، خصله الناعمة مسدولة على جبينه، وله شريطة بلونٍ أزرق تلفّ معصمه الأيمن الضئيل مكتوبٌ عليها: هزاع سعود. لم تفهم شعيرات ذراعه المنتصبة لم راح قلبه يضخ الدمَ بهذه الكميات الهائلة والمفاجئة، ولا سبب جفاف عينيه لأنه لم يستطع أن يرمش لعدة ثوانٍ، فما كان من حكمتها إلا أن عادت إلى التمدد والنوم مجدّدًا. أما هزاع فقد هبّ من الغرفة بما يستطيع جسده الضعيف من سرعة، تحت نظرات

استغراب من عائلة زوجة سعود، فقالت منيفة: إنه هكذا، فعلها عندما ولدت بسعود. إنه يرتعب من جناح الولادة، أو يرتعب من الأطفال، أو كلاهما معًا.

عندما خرج هرعًا من الغرفة، رأى رجالًا يجلسون على كراسي الانتظار، ينظرون له. يكاد يقسم أنهم الرجال ذاتهم الذين كانوا بانتظاره عند ولادة سعود قبل أكثر من عشرين عامًا، ولا فرق في المشهد إلا أنه قد شاب، وهَرِم، بينما لم يظهر حتى خطٌّ إضافيّ على وجوههم. ولكنه فهمهم هذه المرة. إنهم ينظمون لهذه الأخويّة لا لجلب الآباء للحاضر فحسب، بل لضمانِ عودتهم للحياة في المستقبل. لضمان الأبدية. إنها دورة التاريخ اللعينة.

لقد متّ البارحة، قال لزوجته في اليوم التالي. فقالت: جميعنا يحلم بكوابيس هذه الأيام، تعوذ من إبليس بس وصلِّ ركعتين. توالت الأيام وضاق ذرعًا بجسده المتهدّل. كان يسمع صوت الطفل يبكي في الليل، من الطابق الذي يعلوه، حيث يسكن سعود وزوجته. مرةً أيقظَ منيفة وأرغمها على ضرب الباب عليهم والقول: الشايب يبي ينام. ولكنه لم يكن ينام في كلا الحالتين. ذاك البكاء كان شيئًا أجمل من أن يُحتمل. يفاعة صراخه كانت دلالة على حياةٍ جديدة بمتناول يديه ولكنه يعجز عن الإمساك بها وخوضها. يريد أن ينتقل لهزاع ذاك، الجديد، بجسده الورديّ الصغير، واحتمالات المستقبل اللانهائية التي يملكها بقبضة يده الصغيرة. هل إن مات سينتقل وعيه مباشرةً

للطفل؟ تبدو هذه فكرة كمبيوتريّة بحتة، ولكنه لا يملك حيلةً للتفكير بالطريقة التي تحدث بها الأشياء. إنها نظامٌ يفوقه. ولذا عاد مرة أخرى للتفكير بذلك السياق الكمبيوتريّ حتى يطمئن، فلا أحد يستطيع تحمّل ثقل اللافهم، فالتفسير الخاطئ أكثر أمانًا من الجهل. أعاد السؤال بطريقة أخرى: كيف يستطيع أن ينقل وعيه للطفل؟ ولكن حتى إن نجح، سيكون قد فاته قرابة شهرٍ منذ الولادة، ولا يبدو هذا عدلًا. حتى إن لم يتذكر المرء شيئًا من هذه المرحلة، إلا أنه على الأقل يعيشها، يستشعرها. تقبع في الرأس كومضات مستعصية. وإن أخبره الكبار لاحقًا بقصصٍ عن هذه الفترة سيبتسم، ويصدقها. ولذا فكل لحظة في جسده المتهدل هو إضاعة عمرٍ من الجسد الجديد. ولكن كيف؟ ما هي الميكانيكية لفعل تلك القفزة الذاتية؟ ربما عليه أن يتواصل مع الطفل ويكتشف ذلك. فمنذ ولادته، لم يشاهده إلا مرة واحدة. إن رؤية نفسك أمرٌ مفزع إن لم يكن في الأمر مرآةٌ ما أو صورة فوتوغرافية. أراد أن يغامر، ويقابل هذا الوافد الجديد، لوحدهما، هزاع الكبير وهزاع الصغير، وجهًا لوجه، حتى يتفاهما حول هذه الذات المهشمة بينهما كرجلين ناضجين. ثمة صفقة لا بد أن تحدث. ولكن من الصعب أن تجد الرضيع وحده في هذه المرحلة. إنه محاطٌ دائمًا بأوجه غريبة، بشعة، تطلق أصواتًا غريبة ومرعبة يظنون أنها لطيفة. ولذلك انتظر فترة العصر عندما يغادر الضيوف عادة، ويُترك الطفل في غرفة المعيشة، وسط سريره المسيّج، بصحبة العاملة المنزلية الجديدة. مسألة أن يكون الطفل

وحيدًا في الغرفة لن تتعدى الدقائق القليلة إذا اخترع ذريعة لتصريف العاملة، ولذا عليه أن يسرع.

كان جالسًا كعادته في الديوانية عندما ترامى في الفضاء صوت أذان العصر. استغفر ربه وقام من مكانه متوجهًا للطابق الأرضي. تستطيع الصلاة أن تنتظر. يريد أن يكون سجوده القادم بالجسد الجديد، بروحٍ لم يكتب لها ذنبٌ بعد. ولج من باب غرفة المعيشة حيث الطفل والعاملة بسكونٍ مهيب، أصدر الباب صريرًا خاف أن يوقظ به الطفل النائم. كانت الأضواء مطفأة ولكنّ النافذة سمحت لشمس العصر أن تملأ الغرفة نورًا حميمًا يكشف عن حبات الغبار المتطايرة. ما زال يستطيع سماع صوت الأذان يترامى من النافذة، وهو ينظر للعاملة جالسةً بصمت، تنظر له وكأنها تنظر لميت. تتضوّع في الأجواء رائحة المخلوق الجديد، متمثلة برائحة بودرة، حليب، سيريلاك، فضلات، وغالبًا ما يحيطه من روائح عطور الزوار. فكّر بأن للإنسان الجديد رائحة نفاثة كما للأجهزة والأشياء الجديدة. كان ينظر في عيني العاملة السمراء اللتين كانتا تتروّاه من غير أن ترمش. أمرها بأن تذهب لتأكل شيئًا، وما إن خرجت حتى حدّق هزاع بالسرير الصغير متوجّسًا كمن يحدّق بقبره.

سقط قلبه عندما سمع من آخر الغرفة عطسة الطفل. كان لذلك الصوت الخافت وقعٌ جعله يريد أن يقترب، ويرى، تمامًا كما يفعل المرء حين يضيء أنوار الغرفة إن سمع في الظلام

قرعًا ما. فاقترب هزاع متردّدًا من السرير، وتفاجأ برؤية الطفل مستيقظًا، وكأنه ينتظره.

إلا أن الطفل لم يكن ينظر له، وكأنه غير موجود، بل كان ينظر بعبثية الأطفال إلى السقف، بلا نقطة ارتكاز معينة. اغتاظ هزاع كونه لم يتلقَ انتباهًا من الطفل، وكأن في ذلك انكارًا لوجوده، وتهميشًا للشخص الوحيد الذي ينازعه على هذه الذات. إلا أن الطفل حرّك عينيه تجاهه في تلك اللحظة، وأصبح هزاع موجودًا فجأة. وهكذا امتلأ بالقلق، وشعر بأنه في مأزق. إنه يشبهه فعلًا، لن يخفى ذلك على أحد.

لم يعرف كيف كان عليه أن ينظر له. كيف تشاهد طفلًا رضيعًا وقاتلًا في ذات اللحظة؟ فكّر بأحقيّة قتله، فهذا الكائن لم يكتسب ذاته بعد. لا يزال هلاميًا. لم يصل بعد لطور الشخصيّة، وإلا لتشظت ذاته هو عند ولادة هذا الشيء. لا يزال حيوانًا صغيرًا لا يفقه وجوده بعد. كتلة لحم تنبض فحسب. كما أن مسألة ذبحه من الممكن أن تكون دفاعًا عن النفس، وبالتالي فقتله مباح. ثم ضحكَ الطفلُ فجأة. دار رأس هزاع: إنه يضحك! إنه يتكوّن! كيف يضحك قاتلٌ بهذه البراءة؟ ضحك مرةً أخرى، وكان الصوت المخربش الناتج من تلك الضحكة أعذب ما سمعه في حياته كلها، وأرعب ما سمعه كذلك.

إن لم يكن قادرًا على قتله، فما الذي يجب عليه فعله؟ عليه أن يفعل شيئًا ما، أي شيء. فكّر أن يقول له شيئًا، ولكن ما

الذي يمكن أن يقوله المرء إن رأى نفسه متجسدًا أمامه غير لكمه وضربه؟ ربما يفشي له بعضًا من أخطائه الجسيمة حتى لا يكررها، وذلك ليقود هذه المرة حياةً أفضل. نعم فالذات التي أمامه هي ذاته في النهاية، حتى لو كانت في جسدٍ آخر. ينظر له وكأنه ينظر لمرآة زمنية. هذه الفكرة من شأنها أن تجعله يتسامح مع ما يرى، ويحب لها ما يحب لنفسه؛ ربما سيسرّح شعر الصغير بشكلٍ جذاب كما يحب هو، ويستبدل ألوانًا يفضّلها بملابسه، ولا يستقبل الزوار لأن الآخرين متطفلون دائمًا. نعم، يحقّ له فعل ذلك لأنها رغباته هو، هزاع الكبير، هزاع الصغير، مهما اختلفت الأسماء والأجساد.

هل يخبره الآن بأن يتّسم بالحكمة، ألا يظلم، ويدرس أكثر؟ لا، يريد أن يخبره بأشياءٍ حقيقية. الأخطاء! ولكن من أين يبدأ بالأخطاء؟ إنها كثيرة. لن يلحق على محوها. ولكنها نعمة أن يحظى المرء بفرصةٍ للتقليل من الندم في حياته المقبلة. أو ربما من الأفضل أن يترك الطفل في جهله. يدرك خطورة العبث بالماضي، وبالتالي يخشى أن يغير شيئًا قد يؤدي لعرقلة مجيء سعود مرة أخرى، ثم هو. كيف له أن يعرقل عودة الماضي الأبديّة، وهذه هي الأعراف هنا؟

بدأ يفكّر بحياته، وبكل الذي سيخوضه هذا الصغير. أراد أن يعيد أهم محطاتِ أيامه حتى يخرج منها بقيمة، شيء يستحق أن تدفعَ الرعب الذي يطلبه العيش كثمنٍ له، ولكنه ارتبك

عندما لم يتذكر إلا عددًا لا نهائيًا من العصريات التي كان يجلس بها في الديوانية، حيث الأضواء مطفأة، أشعة الشمس الناعسة تمرّ من خلال النافذة العملاقة، يجلس على الكنبة الأرضيّة، يشرب الشاي والقهوة، يدخّن، ولا يفكّر بشيء، وكأنه ينتظر حدوث شيء ما. ربما إن سأله الصغير الآن: كيف ستكون الحياة؟ سيخبره هزاع: عصريات عديدة خالية، وانتظار لشيء لن يحدث. يا لهذه الكآبة، سيقول الطفل، هذا ما خرجت منه في حياتك، هذا ما ينتظرني؟ وسيخبره هزاع بأن المرء لا يخرج بشيء بتاتًا، هي لحظات قليلة تتذكرها في النهاية، ذكرى لك وأنت جالسٌ وحدك في مكانٍ ما، ذكرى فحسب، قد تكون خيالًا، لن تتأكد أبدًا، إنها لحظات ورؤى هشّة لا تستطيع تمييزها حتى. وعندما تموت؟ يسأل الطفل. سيقول هزاع بأنهم درّسوه عن ذلك، في المرحلة المتوسطة ربما، قيلت حكايات كثيرة ولكنه غير مطمئن، وبالكاد يتذكر. ماذا سيحدث؟ يصرّ الطفل. ويجاوب هزاع بأنه لا يفهم تمامًا ماذا يحدث؛ ثمة ملكان، بضعة أسئلة، أفعى لمن لا يصلي، قبر وسيع للمسلم، نار للكافر، وتنتظر القيامة، صوت صور مرعب، كائنات من نور، كائنات من نار، محكمة تكفي البشرية منذ بدايتها، وأبدية تنتظر، أشياء من هذا القبيل. سيصمت الطفل ويحاول أن يتخيل، ويفشل، ثم يتسامح مع الفكرة الملّغزة بقدرة الإنسان الفظيعة على الإيمان.

يستطيع هزاع أن يرى من النافذة بأن الشمس كانت على

وشك الغروب. عادةً يكون جالسًا في الديوانية في مثل هذه الساعة، يشرب شايًا وقهوة. ولكنه هنا الآن، فبعدما كان يشعر بالتهميش طوال حياته بسبب هالة والده، ها قد أمسى وجوده مكثّفًا أكثر من اللازم. تذكّر أباه، وطرأت له فكرة أن الأكثر إبهارًا من الموت، هو مضاعفة الحياة؛ هذا المشهد تمامًا. دفعته هذه الفكرة للابتسام، وشعر بدغدغة في صدره تشبه الانتصار. راح يضحك، وتعالت قهقهته حتى ملأت الصمت من حوله. ضحكَ وضحكَ وضحكَ حتى اغروقت عيناه بالدموع واهتزّت عضلاته وأضاع تنفّسه وكاد صدره أن يتمزّق. فما كان من الرضيع إلا أن يشرع بالبكاء، فاختلط ضحك الشيخِ ببكاء الرضيع في تناغمٍ شكّل إيقاعًا تردّد في ردهات البيت الناعسة.

توقّف كلاهما عن التعبير عن دواخلهما، وعاد الصمت ليتسيّد الموقف. راح هزاع يمسح دموعه بكمِّ دشداشته، وبدأ يفزع من فكرة العودة مجدّدًا للحياة؛ يا إلهي، الجلوس في تلك السلسلة من الديوانيات مرةً أخرى؟ ديوانيات إلى الأبد؟ من يريد هذا؟ بالتأكيد ليس هو. لا يمكن أن يسمح لشيءٍ كهذا أن يقع.

لا يدري ما الذي يحدث معه تمامًا، ولكن بدا كل شيءٍ مخيفٍ فجأة. هبّ خارجًا من الغرفة تاركًا الطفل من ورائه، وولج الديوانية مباشرةً، وطلب البعد عن الجميع، فلم يعد أحدٌ بريءٌ في رأسه. حتى الخادمة التي تجلب له الشاي والقهوة، وصحن

الرز الأبيض والروب بعد صلاة الظهر، وسندويتشات بعد صلاة العشاء، كان يتحاشاها بالدخول إلى حمام الديوانية وإقفال الباب على نفسه.

وزاولَ اعتكافه في الديوانية في الأيام التالية. لم تعد منيفة تراه إذ كان يرقدُ في مكان جلسته، على الكنب الأرضيّ. توقّف عن الحديث منذ فترةٍ، وصار يأكل أقلّ. وهن جسده وفقد ربع وزنه. كان شارد الذهن دومًا، يلعب بمسبحته وهو يتساءل كم عصرٍ عليه أن يقضي بعد؟ لم يعد يطمئن لأشعة الغروب، إذ أصبح يؤمن بأنه أضحى غروبًا بحدّ ذاته، شيءٌ في المنتصف، يتفانى دومًا ولا ينقضي، وراح يطوّف صلاة المغرب، ويظل محدّقًا في الجدار المسكوبة عليه الأشعة القانية لاحمرار الشّمس.

وذات يوم استيقظت منيفة على صوت الخادمة وهي تخبرها بأن السيد هزاع وسّخ فراشه، ولا ينطق بكلمة. ارتعب الجميع، وكلما حاول أحدهم محادثته، شرع بالبكاء، ثم الصمت. إن سألوه عن اسمه ليتأكدوا من سلامة عقله، ارتعب وخبأ وجهه بكفّيه. ومن يلومه، أو من يعرف من هو الآن على وجه التحديد؟ فسّر الدكتور المختص بأن هزاع يعاني من وسواس المؤامرة بسبب الاضطهاد الذي واجهه بطفولته وتهميشه، ولذلك قد يفعل ما يفعله الآن ليحصل على الاهتمام الذي افتقره في حياته، واكتفى الجميع بذلك ليتسامحوا مع حالته.

أما هزاع الرضيع، فلا أحد يذكر متى آخر مرة بكى فيها.

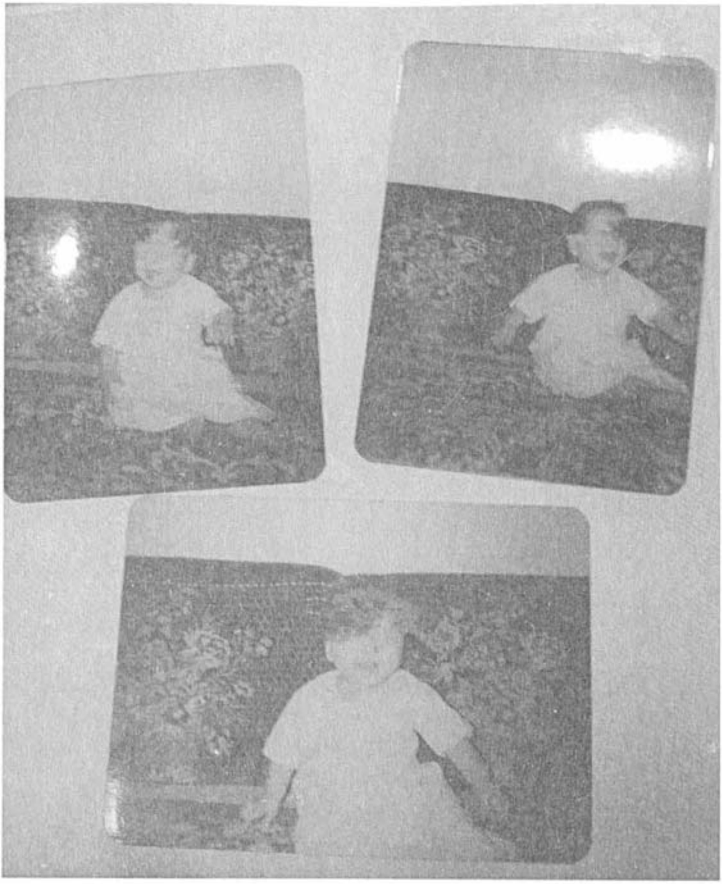

أوحى الإنسان لنفسه

تلسعكَ البرودة وأنتَ خارجٌ من باب الفندق. إنها زيارتك الأولى لأوروبا، برفقةِ صديقٍ مثقّف، مُطّلعٍ على هذه البلاد جيدًا، والأجلُّ من كل هذا أنه يبجُّل الفن. يقترح عليك مباشرةً بهزّة رأسٍ متّقدةً وودودة: هاه، متحف؟ وتظنّ بأنها فكرة سديدة. وإلا ما الذي يجعل هذه البلاد مغايرة؟ مطاعم ومقاهٍ وشوارع وسياح وساحاتٍ مزدحمة. الشيء ذاته. ولكن ستستطيع، إن زرت المتحف، بأن تتباهى بذلك أمام زملاء العمل، وستجد موضوعًا لتناقش به سارة، تلك التي لا تستطيع أن تغض البصر عنها، والتي تعلّق لوحةً في مكتبها بدت لك غريبة، وأخبرتكَ لاحقًا بأنها لشخصٍ يدعى دالي، غير أنك لا تتذكر هذا الاسم الآن.

وتذهب. تعبرُ المدخل الضخم وتتنقل في ردهة الاستقبال الشاحبة بخطواتٍ بطيئة، ثقيلة، وكأنك في مكان عبادة، وتتساءل

لم يبدو الجميع صامتًا، مع أن لا آلهة هنا لتقدّس، واللوحات لا تخاطبنا بالصوت كما تفعل الأفلام في قاعة السينما. هنا تترك المظلة والحقيبة والمعطف، وكأن عليك أن تواجه الفن في الداخل عاريًا، متحررًا. تشتري تذكرتين من آنسةٍ شقراء بصحبة صديقك الذي يبجِّل الفن، ثم تسبران المتحف، ذلك الفضاء الأبيض الذي يدعوك لأن تنشغل بكل ما فيه، كل ما يستعرضه، ويُلزمك باستحضار كل ما في جعبتك من ثقافة وذكاء وحس، لكي تفكَّ ألغاز هذه اللوحات، فيكافئك بالمقابل بزهوٍ عميق ووهمٍ مؤّقت بأنك بدأت تفهم العالم. صالاتٌ وصالاتٌ وصالات، غير مسموح لك أن تدُبّ بها متعجلًا، بل -وكما لو تقاعس الزمن- عليك أن تخطو مُثقلًا بذهنٍ متيقّظ وعينين متسعتين. ثم تستمع لعقب الحذاء وهو يضغط على الأرضية الخشبيّة بخجل، ببطء، محاولةً لكتم الصوت الذي يكشفه، رغبة في الاختفاء، وكأن لا شيء يستحق أن يصرّح بوجوده بجانب هذا الفنّ الزاخر المعلّق على الجدران. فهذا صرحٌ لا يأذن بوجود ضجيج، ومع ذلك تستطيع أن تستمع، إن أنصت جيدًا، لصوتٍ سميكٍ، داكنٍ، يشبه الصمت، بيد أنه ليس صمتًا، بل صوتًا ثقيلًا يشبه غمرة النّوم، ولو كان الموت رجلًا، لأعلن بزهو: هذا هو صوتي. ومع ذلك ثمة أصوات لا يمكن أن تكبح نفسها، وجودها ضرورة، ستتدخّل في المشهد لكي تربك هذا الشيء الشبيه بالصمت؛ كحة رجلٍ عجوز يرتدي قبعة سائح مدورة، نداء فتاة صغيرة لوالدتها المتسمرة إزاء لوحةٍ فارغة مخافة أن تكون قد فقدت الأم صوابها،

رنّة هاتف، تعليقٌ من زائرٍ مذهولٍ أو تذمّر من زائرٍ اكتشف متأخرًا نخبوية المكان.

تقفُ أمام لوحةٍ مبهمة. تصغي للـ واو والـ يا سلام والـ أخّيه من صاحبك الذي يبجّل الفن. تلاحظه وهو يرى بعينين حادّتين، فتقلدهما. يصالب ذراعيه، فتصالبهما. تستمع له وهو يخبرك عن معنى تداخل الأحمر والأصفر، ولكنك لا ترى إلا البرتقاليّ. يشرحُ لك أن اللوحة تمثّل يأس القرن العشرين، ولكنك لا تشاهد إلا يأسك من رؤية ذلك. يقول إنها تمثّل أبناء جيله، ولكن لا يوجد في اللوحة سوى رجلٍ سمينٍ واحدٍ فحسب. تشعر بغروره وزهوّه، وهو يشرح ويَسبكُ ما يسمّيه بالبنيةِ التحتية للوحة، بصوتٍ لا يكاد يستطيع أن يكبح حماسته، ويتلبّس نبرةً رزينة، ملائمة للبوح بالحكمة والحقيقة، وتفكّر بأن هذا الزهو يكاد يجعل صاحبك يؤمن بأنه يقطن تحت عرش ربّ العالمين بمترين. وتستمر بهزّ رأسك كمن يئِس من الاستماع لمجنونٍ لا طائل منه، أو ربما كنت أنت المجنون في نهاية الأمر، ثم تسلّم بأن لا فرق بين الاثنين على كل حال. ويعلّق صديقك: شوف شوف. وكأنه الوحيد الذي يملك عينين هنا. ينعتُ ويصفُ ويوضّحُ، وبدّلا من أن تتمعّن باللوحة، تنظرُ للجدار. والجدار احتجاجٌ معماريّ على شساعة الفضاء، ومرمى تنتهي عنده الأفكار. تطلق سراح ذراعيك من المصالبة، وتدسّ كفيك المتعرّقتين بجيبيك، وتفكّر: بعض الجدران أكثر حظًا من غيرها.

وتبدأ بالتفطّنِ لغيرةِ سطوح الجدران الأصيلة، الفارغة من تعبيرٍ يدلُّ عليها؛ تشعرُ بغيرة هذه السطوح من اللوحات المتمكيجة، المستحمّة بأضواءٍ بيضاء حادة، مدّعية العمق، محاكية الواقع بتشوّهٍ حكيم يتّفق مع المعايير الجمالية السائدة. أو ربما غيرة جدارٍ يحمل لوحةً ما بعد حداثية غير مفهومة، من جدارٍ يعلّق عليه لوحةً لموندريان، حتى وإن كان الآخر هذا غير مفهوم، ولكنه مشهور. ثم ستتقصى أكثر بطبيعة هذه الحواجز الحجريّة، وتدرك أن بعض الجدران انطوائية، تكره الفلاشات من هواتف السياح، وبعضها الآخر مترفّعٌ، يزهو بلوحةٍ شهيرة معلّقةً عليه كما تتغنجُ آنسة بتعليق ماسةً نادرة على عنقها. تُنتشل من سرحانك وتعود لصديقك الذي يبجّل الفن وهو يولول: وَل! وكأنه يتمعّن بإعلانٍ لفيكتوريا سيكرت. وهكذا تقرّر أن تتركه، وتسبقه، فربما يكون لغطه هو مصدر انزعاجك من هذا كله.

وهكذا تتنقل وحيدًا بين الأعمال الفنيّة وأنت تمارس واجب التوقّف إزاء كل لوحة كحضرةٍ مقدسّة، دليلًا على احترامك لها حتى وإن كنت لا تدري لِمَ تحترمها أصلًا، ولكنه الهدوء المهيمن وتمركزها في فراغ الجدار من يعطيانها هذه السلطة، هذه الرهبة الساكنة. وبالتالي تُحدّق، تحاول أن تنتمي للمكان، أن تغرز معنى في اللوحة، أن تفهم. حاجبان مقتضبان ونظرات متلبّسة تدّعي تقدير الفن وإدراك المغزى. ذراعان متصالبان مرة أخرى والإحساس فجأة بالترفّع والعلو، تسندُ ثقلك من قدمك اليمنى

إلى قدمك اليسرى. تشعر بالألم في كعبك الأيسر وتتمنى أن تجلس أو تزاول المشي ولكن من المخجل أن تنسحب بهذه السرعة من أمام اللوحة، عليك أن تنتظر، إذ أن هذا ما قد يفعله من يقدّر الفن ويفهمه، ولذا تتابع النظر، والذي سريعًا ما ينعكس لنظرٍ لداخلك. تفكّر بأشياءٍ أخرى. بمرقةِ دجاجٍ ساخنة. بعلبة كولا باردة. بأصابع الآنسة التي قطعت لكما التّذاكر، وتفكر لم أكثر ما يثيرك في النساء هو أصابعهن. تتذكّر أمك فجأة، وشكل عباءة الرأس التي ترتديها، وتتأمل ما معنى كل هذا بجانب هذه العباءة؟ وهل لو علّقتها مشدودةً بسوادها المنطفئ على هذا الجدار الأبيض، وأطلقت على العمل اسم: السماء، ألن يصفّق لك كل هؤلاء الزوار في المتحف؟ وربما لو علّقت برقعها الأسود، بحيث تكشف فتحتا العينين عن الجدار الأبيض من خلفهما وأطلقت على العمل اسم: عيون الله التي تحرسك، ألن يكتبوا صفحة عنك على ويكيبيديا؟ ثم تبدأ باستعادة أشياءٍ عدة ندمت على فعلها، أشياء ستفعلها، أشياء تتذكرها ولا تدري لم تذكرتها. اللوحة ذريعة جيّدة لأن تجعل توقّف المرء فجأةً والتفكير في حياته أمرًا طبيعيًا ومباحًا. المهم أنك تفكّر في أي شيء عدا اللوحة التي أمامك لأنها بدأت تتحول لمصدر إزعاج، تجسيد صريح لفشلك وجهلك في الفهم والانتماء. وبالتالي تشعر بالتململ سريعًا من هذا العذاب. جهنّم تشبه أن تتمشى في هذه الصالات إلى ما لانهاية، إذ أنك لا تتوقف عن المرور إزاء لوحاتٍ مبهمة وغامضة كما الحياة نفسها، لا تفتأ أن تذكرّك بكم

أنت جاهل، وفاشل، وأقل قدرًا من كل أولئك الذين حولك، ولم تكن حياتك حتى هذه اللحظة سوى مضيعةً للوقت.

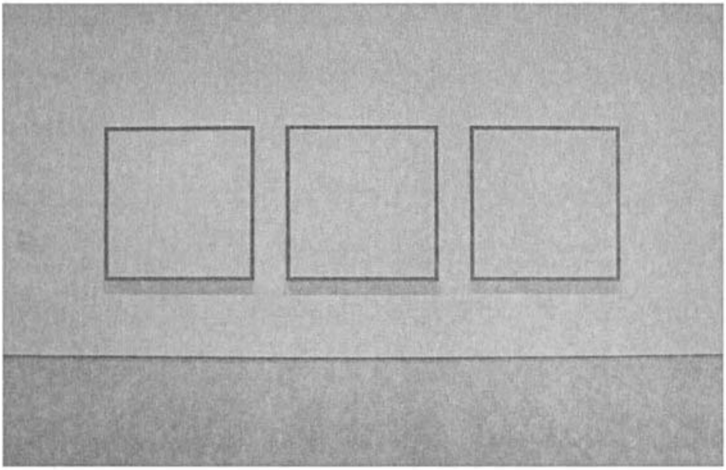

تشعر بكعبك متورّمةً مرةً أخرى، وبمعدتك خاوية. تلتفت ناحية المقاعد المخصصة لراحة الزوار في وسط الحجرة، ولكنها ممتلئة بالسياح. تترامى إليك أصواتٌ ترطن بلغاتٍ مختلفة من زوارٍ من بقاع الأرض، كلمات لا تفهمها، تحاول أن تقبض على اسم لغتها، وإرجاعها إلى هويّة محدّدة. ثم تنظر لهيئتهم فقد تساعدك في التخمين، ولكن جميعهم متشابهون؛ أشخاص من طبقة متوسطة، تحمل حقائب ظهر، يرتدون جينزًا وحذاءً رياضيًا. يعتذرون إن مشوا في المساحة بينك وبين اللوحة، كما يعتذر أحدهم في المسجد إن مرّ أمام مصلٍ آخر. ترتفع موبايلاتهم تجاه اللوحة، يريدون أن يلتقطوا صورةً لها، رغم وجودها على شبكة الإنترنت بوضوحٍ أفضل، ولكنها الخصوصيّة. قد تكون

الصورة الملتقطة سيئة، ولكنها على الأقل صورة تخصّهم. ثم يتمعّنون بالصورة المُلتقطة أكثر من تمعّنهم باللوحة نفسها. هل أتقنوا نقل شعورها؟ ماذا يكتبون تعليقًا قبل نشرها؟ ولكن كيف يعرفون شعورها بالضبط أو يكتبون عنها أي شيء إن لم ينظروا للوحة نفسها بعد؟ فالهواتف أضحت تنظر للمشهد قبل أن ننظر نحن له. وسريعًا ما يدركون فداحة فعلتهم، ويركبهم الخجل. يدسّون الموبايل بسرعة في جيوبهم كمن ارتكب خطيئة، ويُرجعون النظرَ للوحة مرةً أخرى بعينين تائبتين تسألان المغفرة.

مُشوّشٌ، تحوّل بصرك تجاه الناس بدلًا من اللوحات. تدرك أن الفن لا ينتهي عند برواز اللوحة، بل يمتدّ للصدور والرؤوس من حوله. يغرز بذرةً أقوى من الفايروس، من الفكرة، من الشعور. تتأمل الأوجه المذعنة، المنصتة، المنضبطة. قطيعُ السياح وطوابير تلاميذ الرحلات المدرسية وكبار السن بمقاعدهم. أناسٌ من بقاعٍ بعيدة أتوا ليحجّوا هنا ويلتمسوا بركات الفن الذي سيجلّهم ويدفعهم لمواجهة الحياة بيقينٍ أعمق. إنه دينٌ جديد. ذاتيّ. متجدّد. قابل للتأويل. يُنقذ لا يدمر. معابده بيضاء. له رسلٌ لا يكفّر كلٌ منهم الآخر. والأسمى من كل ذلك أنه عالميّ، لم يظهر من بقعةٍ جغرافيةٍ محدّدة، بل انبثق في العالم أجمع دفعةً واحدة. وإن سأل أحدهم من أوحى لكل هؤلاء الرسل؟ سيقولون: أوحى الإنسان لنفسه.

تستغفر في سرّكَ. ثم تُقرّر على غفلة أن تترك كل هؤلاء،

وترجع لصديقك، فقد يكون هدأ من صرعته الآن، فتتلفّت وتلمحه بمشقّة وقد تخلّف عنك بمقدار ثلاث صالات. هذا هو مقدار جهلك إذًا. إن سألك أحدهم لاحقًا عن مدى جهلك، قُل: ثلاثُ صالات. وبالتالي تتراجع عن العودة. تصرّ على المحاولة مرةً أخرى. تقف أمام لوحة قد وقفت إزاءها مسبقًا، علّها تكشف عن نفسها الآن لك. ولكن لا شيء. يتكرّر ألم الكعب بالقدم اليسرى، والشّرود بمرقة الدجاج، أصابع النساء، عباءة أمك، والإحساس بالهزيمة، ثم مواصلة الكرّة للوحة التالية، والصالة التالية، والمتحف التالي، كرغبة أبديّة للانتهاء.

سأل نفسه سؤالا

عدّل أحمد من غترته وشغّل غلاية الماء ثم راح ينظر من النافذة. في الخلفية تأتي أصوات الطابعة والدباسة والأختامِ ضاغطةً على الأوراق من المكاتب المجاورة. كان المشهد من خلال النافذة مغشى بطبقة غبار وسرحان وبعض النعاس. لم يكن ينظر لشيءٍ بعينه، ولكنه كان منغمسًا بالتحديق للصفار في الخارج؛ انعكاس الشمس على أسطح السيارات اللامعة والإسفلت المسنّن، كتل التراب المتشتّتة في الباحات المترامية بين المباني السمينة، وجوه المارة الضئيلة والتي تبدو صفراء هي الأخرى من بعيد. أُخذ بالذات بورقةٍ صفراء كانت تسقط من أحد الأشجار المتعفرة على جانبيّ الشارع. ما معنى هذا؟ أخذ صفيرُ غلاية الماء بالارتفاع من خلفه. ركبته دوخةً وأراد أن يُقذف خارج هذا المشهد الأصفر. أن يفلت من هذا التكدّس الجلف. أن يتملّص من التعاقب المسعور لهذه الثواني المتماثلة. ألا

يكون شيئًا أصفرَ كذلك، متجانسًا، مكرّرًا، لا يمكن تمييزه ولا تستطيع فصله من المحيط. ولكن كيف؟

قبل دقيقة واحدة، طرح على نفسه سؤالًا، ما جعله يهبُّ من كرسيه ويشغّل غلاية الماء، ولكنه لا يذكر هذا السؤال الآن. توقّفت غلاية الماء عن عملها وأطلقت بعض البخار من فوهتها. شردَ بخيوط البخارِ وهي تتلاشى بالهواء ثم وعى لرنين الهاتف في المكتب المجاور. استمر الرنين لستّ رنّاتٍ تقريبًا، ولم يجب أحد. مسك بموبايله ولم يجد أي إشعارات من أحد ولا من أي تطبيق. أين الجميع؟ التفتَ للساعة الدائرية المعلّقة على الحائط -رغم أن الموبايل في قبضته- وكانت تشير للعاشرة صباحًا وسبع وعشرين دقيقة. من غير المنطقي ألا يكون المرء منخرطًا في موبايله في هذه الفترة، يرسل رسائلَ عشوائية لأناسٍ عدة على مختلف التطبيقات، ومع ذلك لم يستقبل شيئًا من أحدٍ هذا الصباح. متى بدأ هذا الصباح أساسًا؟ لا يتذكّر متى جاء إلى العمل. لا يتذكر تلك العملية بالذات؛ المجيء. صوت المنبه، الاستيقاظ من السرير، فرك العينين، المنظر الغبش، انتصاب عضوه العبثي، الخطوات المتعرجة للحمام، إلى آخره. لا يبدو أنه يتذكر أي شيء من هذه العملية التي حدثت، ولكن لا بد أنها حدثت وإلا ما الذي جاء به إلى هنا؟

كانت ساعة الحائط لا تزال تشير للعاشرة وسبع وعشرين دقيقة. هذه الدقيقة تكاد لا تنتهي. الزمن يموت عندما ترصده،

قال لنفسه، ولا يدري ما فائدة التفكير بعبارة مبهمة كهذه في صباحٍ ملعونٍ كهذا. حاول أن يفكّر لِمَ اختار كلمة ملعون بالذات. هل من شيءٍ مميز لهذا الصباح؟ لا، ولذا فهو ملعون. سيفُقد. سيضيع. وكيف تقبض عليه؟ ربما بشيء من ذكرى. ولكن كيف تتذكر شيئًا فارغًا كهذا اليوم؟ لا يمكن تذكر الفراغ، ولذا عليك ملؤه. ولكن أليس التفكير بهذه الطريقة يجعل من عملية ملأ هذا الفراغ مفتعلة؟ ألا يجب أن يكون الملء عملية طبيعية؟ نعم، فالذكرى يجب ألا تكون مفتعلة. ولكن ما الفرق بين المفتعل والطبيعي؟ الواقع يُفرّق، ولكن هل تفرّق الذكرى؟

لمح أصيصَ نبتةٍ على مكتبه بجانب لوحة مفاتيح الكمبيوتر، وتأثّر لشكلها. أربعة سيقان خضراء مستقيمة تخرج من سمادها. لا يعرف اسم هذا النبات، بل استقبله كهدية من زميله عندما استلم هذا المكتب. أمعن النظر فيها وكأنه لأول مرة يرى نباتًا. ما هذا؟ أهذا كائن حي؟ يحيا هكذا، باستقامة، وانتظار، ورتابة، فحسب؟ ظنّ أنها فكرةٌ حزينة. شكلٌ كئيبٌ من تشكيلات الوجود. شيءٌ له خواص فيزيائية لديها توحد وتأخذ حبوب مضادة للاكتئاب. همّ بأخذ كأس الماء من على الطاولة وسكبه على النبتة. اللمعان المتوهّج من تماسِّ الماء مع الساق الأخضر ذكّره بأن هذه النبتة صناعية. بلاستيك. فاغتمَّ، وفكر بأنه شكل كئيب من تشكيلات العدم.

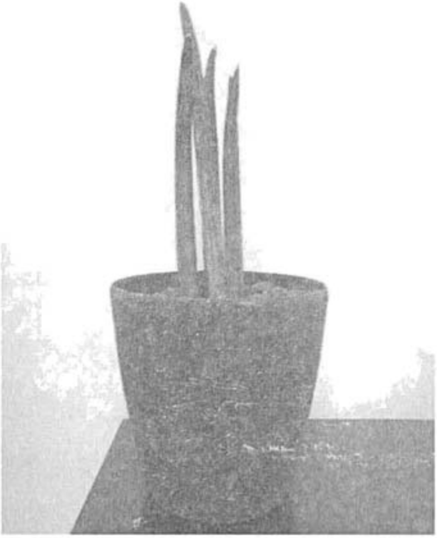

رنّ هاتف المكتب المجاور مرة أخرى. يبدو أن المكالمة مهمة. ربما كانت سؤالًا ملحًا. في رأسه هاتف يرن كذلك ولكنه نسي مكانه، وكم يتوق لمعرفة المتّصل، وما الذي يريد أن يقوله. تذكّر سؤاله. لا بد أن سؤاله كان ملحًا كذلك وإلا لِمَ قام من كرسيه وشغل غلاية الماء؟ سمع صوت الطابعة من الصالة المجاورة وقد بدأت بطباعة أوراق مرة أخرى. هذا الزّنُّ الإلكتروني يأخذ انتباهه من كل شيء. ربما لو لم تنبجس هذه الزعزعة الصوتية في هذه اللحظة بالذات لتذكّر سؤاله. أراد أن يخرج من مكتبه. أن يمر بجانب تلك الطابعة، أن يراها، وربما يوقفها. خرج من المكتب ومشى قرابة ست خطوات باتجاه الطابعة قبل أن يجد أحد زملائه جالسًا في مكتبه يعدّ زمرة أوراق من أمامه. هذا

مرزوق. شاهده وهو يعدّ بصوتٍ مسموع: أربعة وثلاثون، خمسة وثلاثون، ستة وثلاثون. توقّف أحمد ليشاهد مرزوق وقال فجأة: ستة وسبعون، ثلاثة وأربعون، سبعة وعشرون، أربعة وثلاثون. توقّف مرزوق عن العد وتطلّع لأحمد باستغراب، ثم التفت ناحية الأوراق ليزاول عمله ولكنه لم يستطع. لقد نسي أي رقم توصّل إليه. التفت ناحية أحمد مجدّدًا وكان الآخر قد عاد إلى مكتبه.

أغلق باب المكتب من ورائه. لم فعل ذلك؟ لا يدري. ولكن لا يهم. أهو افتعال ذكرى؟ وماذا عن الورقة التي سقطت؟ تلك الورقة الصفراء، ذلك السقوط، المشهد من خلال النافذة، ما معنى ذلك؟ ثمة طائر في رأسه، ولكنه طار هذا الصباح. هكذا يشعر أحمد. لا يدري ما معنى ذلك ولكن شعوره يشبه هذه العبارة، بهذه الكلمات بالضبط. فكّر ما إذا كان لشعوره هذا صورةٌ ما؟ قد تكون لطائرٍ يطير في عالمٍ مقلوب. طائرٌ مفزوعٌ يهرب، يحلّقُ نحو الأرض، نحو ارتطامه. وماذا لو كان له صوت؟ قد يشبه ضربَ مطرقةٍ آتيًا من وراء جدار الغرفة المجاورة، ويقترب. عضّ أحمد على أسنانه بعد ثانيتين. التفت وخبط فخذه بزاوية الطاولة الحادة فوقعت الدباسة، وكان لصوت ارتطامها في رأسه صورةُ الطائر فزعًا وقد وارتطم بالأرض. ولعنة!

أخذ الدباسة وأرجعها إلى الطاولة، إلى مكانها. شعر فجأة بالمنطقية وهو يقوم بهذا الفعل الميكانيكي. إرجاع الأشياء لأماكنها. الترتيب. التعاقب. ما هذا الشعور الذي يخالجه إذًا؟ أو

بصيغة أخرى: من أين أتاه هذا الشعور، هذه اللخبطة بالذاكرة، هذا التكثّف في اللحظة؟ إنه السؤال. يا إلهي، ثمة سؤال! سؤالٌ ملعون الوالدين! تذكّر أنه سأل نفسه سؤالًا منذ قليل ثم تذكّر أنه نسي السؤال عندما حاول أن يسترجعه قبل أقل من القليل، ولكنه لم يتذكر السؤال نفسه حتى الآن. هل كان السؤال متخيّلًا؟ لا يمكن. إنه يتذكره. ولكن بعض الأشياء لا تتذكرها وتحدث رغم ذلك، مثل المجيء إلى المكتب هذا الصباح. وإذًا لا يمكن الاعتماد على الذاكرة كليًا. ولكنّ السؤال حدث. إنه متأكد من أن شيئًا كهذا لا بد أن يحدث، وإلا لِمَ يحدث ما يحدث الآن؟ السؤال سُئل وإن كان بشكل لا واعٍ. مستعصٍ على الإدراك. من يؤكد أن ما يحدث هو فقط ما نراه؟ إن الأشياء لا تتوقف عن الحدوث، والمشاهدة مجرد وجهة نظر قاصرة. وأي سؤال؟ وما أهمية هذا السؤال؟ وما دخل غلاية الماء؟ لقد بردَ الماءُ الآن وأصبح دافئًا، ولذا عدّل من غترته وشغّل غلاية الماء مجدّدًا، وراح ينظر للمشهد الأصفر من النافذة مرةً أخرى. في الخلفية تأتي أصوات الطابعة والدباسة والأختام ضاغطة على الأوراق من المكاتب المجاورة. كان المشهد من خلال النافذة مغشى بطبقة غبار وسرحان وبعض النعاس. لم يكن ينظر لشيءٍ بعينه، ولكنه كان منغمسًا بالتحديق للصفار في الخارج؛ انعكاس الشمس على أسطح السيارات اللامعة والإسفلت المسنّن، كتل التراب المتشتّتة في الباحات المترامية بين المباني السمينة، وجوه المارة الضئيلة والتي تبدو صفراء هي الأخرى من بعيد. أُخذ

بالذات بورقةٍ صفراء كانت تسقط من أحد الأشجار المتعفرة على جانبيّ الشارع. ما معنى هذا؟ أخذ صفيرُ غلاية الماء بالارتفاع من خلفه. ركبته دوخةً وأراد أن يُقذف خارج هذا المشهد الأصفر. أن يفلت من هذا التكدّس الجلف. أن يتملّص من التعاقب المسعور لهذه الثواني المتماثلة. ألا يكون شيئًا أصفرَ كذلك، متجانسًا، مكرّرًا، لا يمكن تمييزه ولا تستطيع فصله من المحيط. ولكن كيف؟

تعرف أمي الطريق جيدًا

بعد أكثر من أربعين عامًا من رؤيته، جلستُ على الكنبة المقابلة لوالدي، ثانيًا ساقًا على ساق، قائلًا: لم أدرِ أن الأموات بوسعهم الزيارة. هلا ببوجاسم!

ورغم أنه الميت بيننا، إلا أنه كان حانيًا ظهره إلى الأمام، يتمعنني، عاقد الحاجبين، منقلب السحنة، وكأنني أنا الميّت. قدّمتُ له استكانة الشاي وتابعت: عظّم الله أجرنا كلينا في جاسم. كان رجلًا طيبًا. بالتأكيد لم تكن تعرف شيئًا عنه بطبيعة الحال كونك مُتَّ وهو في صباه. ولكن من يعرف أي شيء عن أي أحدٍ على كل حال؟ سأعطيك هذا الدفاع، رغم أنك لا تستحق الكثير.

سرت في جسدي رجفاتٌ وأنا أنظر في تلك العينين اللتين أرى فيهما عينيَّ، في عيني هذا الرجل، في عيني أبي، وأقول له ما أردت أن أسرَّ له دائمًا. استطردتُ قائلًا، لا لشيء إلا لأبدّدَ الصمت الذي قد يخوّله لرؤية تشوّشي: العزاء مزدحم بالديوانية،

لا؟ اقترحت أن أختلي بك في هذه الحجرة، يعني، محاولةً لفهم الأوضاع من حولنا، بعيدًا عن الآخرين والمعزين. ولذا علينا أن نسرع. وبالنسبة لإخوتي، عائشة وبشاير وراشد، فأنا لم أخبر عائشة بعد بأنك هنا. ولكن أتعرف ما قالته بشاير عندما علمت؟ إنها تخاف الأشباح! وراشد؟ قال دعه يرجع للمقبرة التي أتى منها.

نظر لي والدي نظرةً متفحصة، وضاقت عينه اليسرى، ولاحظتُ كيف يضغط سبابته بإبهامه، فتمتم: لقد رحلت لأسبابي الخاصة والتي ..

قاطعته بلهجةٍ حازمة: متَّ، ولم ترحل!

اختلجت شفتاي وأنا أحاول أن أمضي في حديثي، محاولًا ألا أمنحه فرصةً للتعبير: ومن يستطيع أن يلومك على موتك على كل حال؟ الموتُ حق! عمومًا، أفترض بأنك ترغب في معرفة أبنائك، وما فعلوه في حياتهم؛ عائشة وجاسم وراشد وبشاير وأنا -إنني أكرر لك الأسماء حتى تتذكرها- ولكنك بالتأكيد تعرف عن أول اثنين أكثر، كونهما كانا في الخامسة عشرة تقريبًا عندما مُتَّ. أما أنا وراشد وبشاير فلا تكاد تميزنا. كم كانت أعمارنا؟ لا أعتقد بأننا وصلنا للسادسة حينها. عادي، فنحن لا نملك أي ذكرى تخصك على كل حال، فالصفقة عادلة إذن.

شحب وجه أبي شحوبًا باردًا، ثم قال بنبرة متمهلة أكثر مما عليها أن تكون: ولكني لستُ ميتًا.

لم يتوقع أبي أن يراني أنفجر في وجهه ضاحكًا بهذه الطريقة، إذ رأيته وقد انتفض في مكانه فزعًا مما رأى، فأسند ظهره على الكنبة، وكأنه يريد أن يزيد من المسافة بيننا. وكما ضحكتُ فجأة، صمتُّ فجأة كذلك، والتبست الوقار وأنا أقول: إن أردتَ للشيءِ أن يوجد، إذًا هو موجود، والعكس صحيح. هذا ما تعلمته من أمي قبل سفرها الطويل. بالتأكيد لم تَصُغ العبارة بهذا القالب الديكارتي المبتذل، ولكنها قالت أشياء مثل ضرورة أن يكون رأس الإنسان يابسًا، وأن لا شيء على الإطلاق أقوى من الإيمان. أعرف أنه خبرٌ ثقيل أن تقول لرجلٍ: أنت ميت. ولكن أشياء ثقيلة كهذه تحدث في الحياة، لا؟ دعني أشرح لك الأمر ببساطة.

نهضت من الكنبة، ورحت أذرع الغرفة جيئةً وذهابًا ببطء، وأنا أحاول أن أشرح لوالدي كيف تعمل الأمور لدينا، فقلت: لا أستطيع أن أؤكد لك متى بدأت هذه القصة تمامًا، ولكني أتذكر متى بدأتُ باستيعاب الأمر. حدث ذلك قبل سنواتٍ طويلة، مع ميري الأولى، العاملة المنزلية التي أتت بيتنا من بلدها سيلان حوالي سنة ١٩٩٨، بعد موتك بثلاث سنوات. كنا صغارًا، أنا وبشاير وراشد، لا نتعدى التسع سنوات. في البداية ظننا بأنها أمٌ أخرى، كونها ترتدي أثواب أمي القديمة. ثم اكتشفنا بأن العلاقتين مختلفتان، رغم التشابهات الكثيرة بينهما. كان لها أذنان تشبهان الستالايت الذي كنا قد ركبناه لتونا على سطح بيتنا، ولها

شفتان كبيرتان كنت أخاف دائمًا أن تقبلني بهما كما يفعل بقية الكبار. ورغم أن المنزل كان مكتظًّا بحفنة أشخاصٍ متطلّبين، إلا أن ميري كانت قادرة على أداء مهامها ببراعة، خاصة في إيجاد الأشياء الضائعة والمنسيّة، لدرجة أنني آمنت بأنها ماردٌ لا يجد الأشياء المفقودة فحسب، بل يخلقها مجدّدًا من العدم. هل لهذا علاقة بأذنيها اللتين تشبهان صحون الستالايت؟ تعرف الأطفال كيف يفكرون! فقط قل لها الصفات: مقلمة صفراء مرسومٌ عليها بيكاتشو، جوارب حمراء صوفية، سروال داخلي أسود، ريموت تلفزيون صالة الطابق الثاني والذي لم يعمل منذ سنوات. فقط قل لها الصفات وستجلب الشيء بتكشيرةٍ كنت أظنها تشبه عبارة «أبرا كادابرا»! صدّقني، أصبحنا نتّكلُ عليها في كل أمورنا؛ إيقاظنا للعمل إن تخاذل المنبّه، تفتح باب المنزل كلما سمعنا الجرس لتجيرنا من مواجهة الغرباء، تعمل كمرمى لتفريغ الطاقة السلبية، ومثالًا متجسدًا للخيبة يذكرنا بكم نحن محظوظون. بعد فترة، أضحى الوضع خطرًا، وبدأنا نفكر باحتمالية رحيل ميري؛ أقسم لك، وقتها ليست الأشياء وحدها من سيضيع، بل نحن من سيضيع أيضًا ولن يستطيع أحدٌ أن يجدنا. وأدركنا بعد مرور خمس سنوات -أي عند انتهاء عقد عملها- أننا لا نستطيع أن نتخلى عن ميري. كان الإدراك بغاية الجديّة. خطرت في بالنا أفكارٌ عبقرية كاحتجازها وعدم السماح لها بالعودة، ولكن القانون سيردعنا عن فعل شيءٍ كهذا. قالت أمي العجوز: لا أحد سيسأل عنها. ولكننا نعرف أن لها زوجًا يراسلها دومًا.

وعدها جاسم، الذي كان قد توظف للتو، بزيادة راتبها ولكنها رفضت وقالت أن أبنائها ينتظرونها. لك أن تتخيل كم الدهشة التي أصابتنا عندما فطنّا إلى أن سلطتنا ومالنا لا يستطيعان ردع ضياعنا، فما كان منا إلا أن سلمنا بالأمر، وسافرت ميري. في الواقع، سأكذب عليك إن أخبرتك بأننا سلّمنا بالأمر. لم نفعل. في الأيام القليلة التالية، وقع ما كنا نهابه؛ بدأتُ بارتداء بيجامة بشاير الوردية، ورجع راشد من البقالة بعينٍ مفقوعة، وفُقدت كل ريموتات التلفزيونات والمكيفات في المنزل. لا تضحك! فلم أكن أبالغ حين ظننتُ بأننا قد نضيع، إذ أن بشاير ضاعت بالفعل حين ذهب جاسم لاصطحابها من بوابة المدرسة، ولم يجدها هناك بين مئات الفتيات اللاتي يرتدين الفستان الوردي ذاته وتيجان الشعر ذاتها تحت شمس الظهر القائظة. ساعتها اتصلت إحدى المعلمات على تلفون المنزل، وأبلغت والدتي بأن بشاير جلست في أحد الفصول، تقول: لم أجد ميري عند الباب، كيف أخرج؟ لا أدري إن كان يصحّ لي أن أقول بأن بشاير عدّت ميري سنادة لمواجهة العالم، ولكن هكذا يبدو لي الأمر بعد كل هذه السنوات. كانت الفوضى لا تطاق بالنسبة للبالغين، أمي وجاسم وعائشة، وبالنسبة لنا كذلك رغم أننا لم نكن في عمرٍ يسمح لنا بالتمييز بين النظام والفوضى. وذات عصرٍ، بينما كنا نحن الأطفال نلعب بالحوش، أذكر أنني دخلت الصالة لأنني شعرت بالعطش، وما إن اعتليت عتبة الباب حتى رأيت أمي جالسة على الأرض، مستندة على كنبة أرضية، أمامها استكانة شاي لا يخرج منها بخار. لمحتني

وكأنها استيقظت من حلمٍ ناعس، وأمسكَت بعلبة السجائر من أمامها ونقرتها من أسفل حوالي أربع مرات، ثم فتحتها بالمقلوب وطقطقت على العلبة حتى خرج رأس سيجارة واحدة. رفعت برقعها بيدها الأخرى وهي تقرّب العلبة من شفتيها وانتزعت السيجارة بأسنانها، ثم أشعلتها ونفثت دخانًا حال بيني وبين رؤيتها. ما أن زال الدخان حتى بصرتُها وهي تضيّق عينيها؛ كانت تلك المرة الأولى التي لاحظت فيها هذه النظرة. بعدها بأسبوع، أتت ميري الثانية. اسمها كيرن -أذكر اسمها لأنه كان يشبه اسم الجبنة المفضلة، كيري-، ولكن، وكما كنا نفعل كلما جاءت عاملة منزلية إلى بيتنا، سلبنا منها هويتها. الجنسية تصبح سيرلنكية مباشرةً. نغير الاسم للفظٍ يعجبنا ونعطيها من ملابسنا حتى لو كانت لا تناسب حجم جسدها. وهكذا سميناها ميري مجدّدًا، وأخبرناها أن ترتدي من الخزانة ذاتها التي تركت ميري الأولى أغلب ما فيها، وكأنها رفضت أن تأخذ معها ما يذكرها بنا. شعرنا بالإحباط عندما نظرنا لها أول مرة عند مجيئها من مكتب العمالة المنزلية، ولكن ما إن خرجت من حجرتها للعمل، حتى رأينا ميري جديدة، بقراطيسها كما قالت أمي العجوز، إلا أنها أفتح قليلًا، شفتاها صغيرتان، وجسدها أنحف، ولكن الجسد لن يكون مشكلة إذ أنها ستأكل يوميًا من المجبوس واللحم، وهذا كفيلٌ بأن يكنزها بالشحوم كما كانت ميري من قبلها. وهكذا، حللنا مشكلة ضياعنا، وأصبحت ميري موجودة مرة أخرى. هل هي ذاتها ميري الأولى؟ لم نعد متأكدين بعد فترة من الزمن،

خاصة عندما سمنت قليلًا وأصبحت ماردًا جديدًا، لا من باب قدرتها على ذلك، إذ أنها لا تملك صحني ساتلايت على رأسها، ولكن من باب الاضطرار وتجنّب الصراخ.

كنت خلال استرسالي بالحديث أنظر لهيئة أبي المستفهمة، والتي لا تبدو بأنها فهمت شيئًا مما قلت، فتابعت موضحًا مقصدي، كما يكلّم الأب ابنه، لا العكس: لم نكن ذاك النوع من الناس الذين يخضعون للواقع، بل كنا نُخضع هذا الواقع لنا ككلبٍ مطيع، وإن لم يعجبنا ذبحناه بالسكين وخلقنا آخرَ غيره. هذا ما يفعله المنتصرون .. الذين لا ينتصرون ربما.

أنزلت رأسي عندما نطقت بآخر كلمتين. يا للغباء! ما هذه العبارة؟ ما الذي كنت أحاول قوله؟ ما بالي وأنا أبدو كمتذلّلٍ يسترجي الرحمة؟ حدّقتُ في عينيه مباشرةً وارتسمت على شفتيّ ابتسامة باردة فقط لأصدّه عن قراءة أفكاري. تقدّمت وصببتُ له استكانة شايٍ أخرى، رغم أنه لم يشرب الأولى، فعرفت أن فعلًا غبيًا آخر كهذا فضح له مدى ارتباكي، فقلت وقد عدت لأجلس على الكنبة: هل تريد أن تعرف إلى أي مدى ذهبنا في هذا الأمر؟ قبل سنوات طويلة، عندما كنا صغارًا، أنا وراشد وبشاير، اشترى جاسم لنا قطةً شيرازيّة بيضاء، وأخبرنا أن اسمها لولي. عيناها رماديتان وشعرها منسكب، مُخصّل، وناعم لدرجة أن بشاير كانت كلما رأتها تحسّست شعرها المنفوش الملتف. كنا بحاجة لشيءٍ جديد ومختلف ينضم إلى العائلة. أعادت لولي الحياة إلى المنزل؛ أصبحنا نتشوق لرؤيتها عندما نعود من المدرسة، نناديها دومًا رغم أنها لا ترد علينا أبدًا. نلاحظ نموها مع مرور الأيام ونردد بتلذّذ: كبرت. هه، تعرف الأطفال! اشترينا لها لعبة، كرة صفراء كانت تجري خلفها دومًا. أصبحنا نعطيها من طعامنا، لا طعام القطط. أضحت لولي بالنسبة لي كراشد وبشاير. صرنا أربعة. انقضت سنة على مكوثها معنا، ثم لاحظنا فجأة أن بطنها اكتنز، وباتت حركتها أبطأ، وأعسر، فخمّنّا أنها حامل. استمرت مدة حملها وهي تأكل أكثر، تنام أكثر، تتقيأ من وقتٍ لآخر، وتجوب أماكن جديدة في البيت وكأنها تفصّله مسبقًا للأبناء القادمين. هكذا هم الآباء الحقيقيين!

كنت أراقب وجه أبي وهو يحاول جاهدًا متابعة أفكاري، فارتعبت عندما أدركت كم كان وجهه يشبهني! وبشكلٍ لم أفهمه تمامًا، تابعت سردي لحكاية لولي بنبرةٍ مرتفعة، ولم أستطع كبح نفسي أو التحكم بصوتي، وتابعت: وذات يوم، بحثنا عن لولي ولم يكن لها أي أثر في المنزل. تمامًا مثلك أنت، هه. على كلٍ، اختفت طوال النهار، وعزّينا أنفسنا بأنها وكما هي العادة، ستخرج من مخبئها لا محالة. انتظرنا حتى الليل، ولا أثر لها؛ صحن طعامها ممتلئ، تربتها مرتبة، والكرة الصفراء في مكانها. بعد حوالي ثلاث ساعات فاحت رائحة بالمنزل بالقرب من المخزن، تتبعنا الرائحة حتى فتحنا باب خزانةٍ قديمة وفارغة. وما إن فعلنا حتى تضوّع الهواء برائحة حيوانية نافذة. ما زلت أذكر تلك الرائحة جيدًا! وجدنا لولي رابضةٌ هناك، تنظر لنا بحيادية، وجسدها السفلي مضرجٌ بالدماء. ما إن اعتادت أعيننا على الظلمة حتى استطعنا أن نلمح أربع جثث حمراء وقطين صغيرين أحياء، أحدهما أسود والآخر أبيض يشبهها. كان المشهد يشبه المعجزة. الطفلة اللعوب أضحت أمًا تعبة، محاطة بالمواد الأولية للحياة. قامت بتقاعس، راحت تلعق نفسها لتنظف جسدها من الدم، ثم باشرت بأكل مشيمتها وهي بالكاد تفتح عينيها من الإعياء، فأدركنا أن للمعجزات ثمنًا فظيعًا لا يُسرد.

كبحت لساني عن الحديث لأترك له بعض الصمت قبل أن أتابع، إيماءة درامية تعطي للقادم من الحديث أهمية، فلقد

وصلت للجزء الحاسم من القصة، ولذا رحت أتفرّس في وجه أبي وأنا أسرد عليه التتمة، محاولًا أن أقبض على تأثير الأحداث في عينيه اللتين تلاحظانني ببرودٍ مستفزّ: في اليومين التاليين، سقط ولداها جثتين منكمشتين. كانت تلعقهما على الدوام رغم انعدام النفس في جسديهما الباردين. قالت عائشة إنهما ولدا غير مكتملين، قبل أوانهما، وموتهما كان مسألة وقت. طبيعي، كانت تردّد. أعجبنا التفسير، وصدقناه لكي نتخلص من ذنب أن نكون المسؤولين عن موتهما، رغم أني لا أدري كيف من الممكن أن نكون كذلك. فما كان منا إلا أن باشرنا بدفن كائنين أصغر من كفّ اليد، ولم يتطلب الأمر أكثر من دقيقتين. ليلتها أكاد أجزم بأن جميع من في المنزل كان يسمع مواءً متقطعًا، لم يتوقف، قادمًا من أعماق المخزن. لقد اختفى كل شيء فجأة. الجثث والولدان والمشيمة. أصبحت لولي تهجر بيتها الصغير وتفتّش المنزل، حجرةً حجرة، مع تردّد دائم على المخزن حيث ولدت. تبحث عن ولديها، جثتيهما، أي أثر، دليل قاطع على أن الأمر قد حدث، وأن تلك الملائكة الصغار لم تكن حلمًا أو هذيانًا، وإلا ما هذا التعب، ما هذه الدماء، وما هذا الخواء الذي ملأ كل شيء من حولها فجأة؟

غمغم والدي بين أسنانه المقضبة شيئًا لم أستطع سماعه، ولكني كنت مأخوذًا بما أقوله لدرجة أنني لم أنتظره يوضّح ما قال، فتابعت: بعدها بيومين ماتت لولي لسببٍ غامض. كانت هناك في

درج الخزانه ذاته، متمددة على جانبها الأيسر. بدا شعرها أنعم، وثمة نقطة دمٍ بين قدميها يبدو أنها نسيت أن تنظفها. لم نفهم. ولم نكن رومنسيين كفاية لدرجة أن نضفي على تلك الحادثة سمة شاعرية. لقد ماتت وانقضى الأمر، ووقع الضياع من جديد في المنزل. لاحظت أمي العجوز أن القلق قد أصابنا، أنا وبشاير وراشد، فدسّت يدها في جيب ثوبها وأخرجت علبة السجائر، أشعلت واحدة ونفثت دخانها، ثم ضيّقت عيناها مجدّدًا، النظرة ذاتها التي رأيتها ذات عصرٍ في الصالة، وأنا ألهث، وهي جالسة على الأرض، مستندة على الكنبات الأرضية، تُشعل بسيجارتها، وأمامها استكانة شاي لا يخرج منها بخار. اتصلَت بجاسم آمرةً له بالقدوم في الحال. في اليوم التالي، رأينا لولي أمامنا. فرحنا في البداية، وركضنا ناحيتها فرحين، فهربت منا مرتعبةً. نظرت في عينيها، وتراجعت خطوة. أدركت لحظتها أنها لم تكن لولي، بل قطة أخرى، تشبهها، فالعيون تكشف جزءًا من روح الكائن، ولم تكن تلك روح لولي التي نعرفها. بالتأكيد لم نفكر لحظتها بهذه الطريقة، ولكن يبدو لي أنه سببٌ منطقي مع ما فعلناه؛ أصبحنا نراها من بعيد فحسب، لا نقترب منها، نبقى أمامها خجلين وكأننا بحضرة زائر غريب. من هذه؟ سألنا أمي، فقالت: لولي، ما غيرها، كانت مريضة فحسب. فصدقناها، ليست لأن الحبكة بدت حقيقية، بل لأن لأمي نبرة أعلى من نبرة الواقع نفسه، كما أننا أردنا تصديقها، ومن يستطيع أن يثبت لنا أنها لم تكن لولي ذاتها؟ ولذا فلينتهِ ضياعنا ونكمل حياتنا وكأن الخسارة لم تقع.

شاهدت وجه أبي الذي لم يتبدّل وهو يستمع لي، فاستشطتُ غضبًا حاولت كبحه فنهضت مرةً أخرى من مكاني، وعدت أذرع الغرفة جيئةً وذهابًا، واستأنفتُ كلامي قائلًا: واستمرت الأمور على ذلك. حتى أنني شعرت مرة بالغربة في أول ليلة نمتُ فيها على سريرٍ لم يكن سرير أمي؛ لم أستطع أن أرقد. تقلبت في جميع الاتجاهات؛ عن يميني وشمالي، غطيت قدميَّ باللحاف، أخرجتهما منه، أخرجت قدمًا والأخرى تحته، حتى أنني جربت أن أنام بالمقلوب وأضع مخدتي في المكان الذي لطالما تبولت فيه وأنا نائم. أخبرت أمي بأنه ليس سريري لأنني لا أستطيع أن أرقد عليه، نفثت دخان سيجارتها من منخريها وضيّقت عينيها، وسألَت: ما بال السرير؟ وتمنيت لو كنت بليغًا يومها لأخبرها بأن منظر السرير الجديد كان إشارة صريحة لانتهاء عهدٍ قديم من عمري، ولم أكن مستعدًا لذلك. ذهبت أمي للسوق في اليوم التالي واشترت ماركة الشراشف ذاتها التي تستخدمها على سريرها، وفرشتها على سريري، ولم أكد أميز بينهما عندما نظرت لكليهما، وفكرت لو أني أزلت الأغطية سيكون السرير الجديد تحته، لا القديم، ولكني لم أفعل، ونمت يومها نومًا عميقًا.

لاحظتُ أن وجه أبي بدأ يصفرّ مع الوقت، ما يعني أنه بدأ يفهم ما أقوله، فقلت متحمّسًا، كازًّا أسناني، وقد أخفضت نبرة صوتي بشكلٍ مسرحيٍ غبي: كانت أمنا العجوز تزيّف الواقع لتحمينا من قسوة الفقد، ولا أستطيع أن أحملها كامل المسؤولية،

فقد كنا جميعنا متواطئين بالجريمة. أردنا أن نفلت وننقذ أنفسنا ولو كان الثمن هو الزيف، ومن شابه أمه فما ظلم.

أنزل أبي رأسه وكأنه يحاول أن يهضم ما قلته. منحته بعض الصمت ليركّز، ليفهم، لينبثق الذنب بداخله، ويخرّ باكيًا على ركبتيه. ولكنه عوضًا عن ذلك قال شاردًا، وعيناه لا تزالان تنظران للأرض: إنك تحملني ذنب كل هذا الجرائم التي ارتكبتموها بالتزييف، حتى ولو لم تتلفّظ بذلك صراحةً. لكَ ما تشاء! افعل ما يحلو لك يا بني.

لا أعرف ما الذي ركبني في اللحظة التي سمعته يقول فيها: يا بني. لم أخطط لهذا المنعطف في الحديث. حاولت أن أتحكم بتعكّر مزاجي، فقلت: لا أحد يحقّ له أن يقول لي يا بني إلا أمي. وحدها أمي. أتفهم؟ أتريد أن تعرف ما الذي حدث لها؟ اسمع. ذات صباح، أرادت أمي الذهاب إلى المستشفى. اصطحبتني معها وقالت: لا تخبر إخوتك. أخذنا السائق إلى هناك. دخلنا على الدكتور ولم أفهم أغلب الحوار الذي دار بينه وبين أمي، ولكني أخذت الانطباع بأن نبراتهم كانت حزينة، وكان الدكتور يتلفّظ كلماته بصعوبة. أذكر أن أمي كانت تحاول أن تجعلني أنتبه للحديث بينهما، ولكني كنتُ مأخوذًا ببياض ونظافة الغرفة الناصعة. لقد أرادت أمي أن تجعلني أسمع ما يقوله الطبيب، ولكني لم أفهم ما قاله، أو ربما لم أرد أن أفهم.

رفعت عيني عن أبي، ورحت أتأمّل نقطة على الجدار،

وكأنني أرى المشهد أمامي من جديد، وتابعت: ما أذكره هو أنني رأيتها وهي تضيق عينيها، وعند هذه اللحظة كبحت فضولي في المكان وحدّقت بها، كانت لا تزال متجمدة على هيئتها تلك، ثم أشاحت ووقفت وهي تعدل عباءة رأسها، متمتمة: خير، جاية، لكن مو الحين. واندفعت خارجة من الغرفة وأنا أنظر مذهولًا للباب الذي أُغلق عليّ وعلى الطبيب الذي كان يرمقني باستغراب. ناداها ليخبرها بأنها نست طفلها، ولكن يبدو أن صوته كان قصيًا على أذني أمي. نهض عن كرسيه واقترب مني ونزل على ركبتيه قائلًا: لا تقلق، ستكون أمك بخير. ولكني ما زلت أذكر جيدًا وجه الدكتور الذي لم يكن بخير على الإطلاق. على كلٍ، دُفع الباب بقوة لحظتها. ارتعبت وأنا أنظر لأمي التي انتزعتني من يدي وأخذتني خارجةً من المستشفى. عندما وصلنا المنزل أخبرتني: إن سألك أحدهم، لا تقل شيئًا. كنا نزور بيت أم حسين وأنت لعبت مع ولدها حسين، فهمت؟ ثم خمشت ذراعي اليمنى وقالت: وهذا لكي تتذكر أن حسين خمشك وأنتما تلعبان.

بدا وجه أبي وكأنه يفكر بشيءٍ ما، لم أستطع أن ألتقطه، ولذا تابعت قائلًا: لا أذكر أنني رأيتها تنام بعد ذلك اليوم. كانت تغفو أحيانًا في الصالة وهي تشرب الشاي والقهوة، تغفو وهي في الحمام، تغفو وهي تأكل. بدت كمن لا يفرق بين اليقظة والنوم. ما زلت أذكر عندما كنا نسهر جميعنا في ليالي العطل الصيفية الطويلة. كنت أتسلل لغرفتها في ساعة الفجر، أجدها تجلس على

مرتبتها الأرضية حيث تنام، تنظر للضوء الفتي وهو ينسكب من النافذة لفضاء الحجرة، تدخّن سيجارتها برويَّة، وتدندن أغنيةً قديمة، لا ألقط كلماتها، ولكن لها لحنًا حميميًا ما زال يشتغل في رأسي: تتنن تن تن.. تنيتننتن. هه، لا تؤاخذني. صدقني إن سمعتها، لن تخرج الأغنية من رأسك أبدًا. عمومًا، ذات صباح أخبرتنا بأنها ستسافر لخالي في الإمارات، ورحلت. وكانت تلك المرة الأخيرة التي رأيتها فيها.

لاحظت خلال حديثي بأن والدي كان يشيح عينيه في خجلٍ وربكة، ولم يدفعني ذلك إلا للغور أكثر في هذا الموضوع بالذات. قلت: كم أود أن أزورها، ولكني أدري أنها لا تريد ذلك، وأنها هناك في بيت خالي، تجلس في حديقة المنزل كفتاةٍ عشرينية، لم تنجب أيًا منا، ولا تقلق لشيء، وتستلذُّ بمنظر الفراشات التي أمامها إلى الأبد.

حنيت ظهري إلى الأمام، ونظرت في عيني والدي مباشرةً وقلت: لو أنك كنت حاضرًا، هل كانت ستسافر للإمارات؟

ولكن بدلًا من أن يترك ما قلته أي تأثيرٍ درامي عليه، جاءت ردة فعله على عكس ذلك تمامًا، ونظر لي نظرةً مغتاظة، كارهة لما ترى، ولكن سرعان ما أدرك نفسه، فابتسم ابتسامةً بدت لي مزيفة، فقال: ذياب، أنت رجلٌ طيّب، ولكن الحياة أرهقتك. دعني أخبرك بهذا: أنا حي! لست ميري ولا لولي ولا سريرك اللعين ولا السرطان الذي أصاب أمك. أنا والدك! وأنت تحمي

نفسك من حقيقة أني رحلت وتركتكم لأن أمك مجنونة، وها أنت تريد أن تصدّق بأني لطالما كنت ميّتًا، كوسيلة دفاع أخيرة، فيكون وطء القدر عليك أخف، تمامًا كما فعلتَ مع موت والدتك عندما آمنت أنها طوال هذه السنوات تعيش عند خالك في الإمارات. ذياب، إنك تتصرّف بحكمةٍ بالغة، ولكن الخطورة بالأمر هي أنك لا تدرك تصرفك هذا.

لا أذكر آخر مرة ضحكت بها ضحكةً عصبيةً بهذا الصوت، وراحت عينيَّ ترقرق دمعًا لم أستطع أن أكبحه. وبعد ثوانٍ، مسحت عيناي بمنديلٍ وأنا أطلق أنةً تشير إلى أنني ما زلت أضحك في داخلي مما سمعت. وما إن رفعت رأسي حتى أخبرته: لا، أنت لا تفهم. أنت ميت فعلًا، وإنك هنا فقط لأني قررت أن أؤمن بأنك هنا. شبحٌ قادمٌ لزيارتي.

ثم أضفت، مشيرًا بيدي إليه: يبدو أنني أحتاجك رغم كل ذلك. شخصٌ ما أحدثه عن كل هذا. أنا فخورٌ بأني لم أحتجك طيلة السنوات الماضية، ولكن للإنسان الحق في أن يكون ضعيفًا أحيانًا، خاصة عندما يموت أخوه الأكبر، والذي كان يعمل كأبٍ حقيقيّ في هذه العائلة. كنت أفكر اليوم وأنا أتوقع زيارتك: سأنهض لأحتضنه بقوة، سأقبل رأسه، وقد أسقط على ركبتيّ لتقبيل قدميه. ولكن ما إن رأيتك حتى امتلأت بالريبة، وما أن تحدثتَ حتى زال كل هذا الارتباك، وحاولت أن أكرر بصوتٍ عالٍ إنك ميّت، حتى لا أنسى، حتى لا أصدّق ما تخيلته وأقع في

الفخ الذي نصبته لك. أخبرني، وأجبني على هذا السؤال، كيف لك أن تتحدّث بهذه الفصاحة إن لم تكن سوى صورةٍ خلقها خيالي أنا، وبالتالي لن تستخدم إلا لغتي وأفكاري الخاصة؟

أجابني بحرارة وقد اختلجت عيناه وارتجف صوته: يا ولدي يا ذياب! أنت لا تعرفني، ولم ترني منذ أكثر من أربعين عامًا، فكيف لك أن تتوقّع طريقة كلامي أو مستوى فصاحتي؟ يبدو أنك ورثت الجنون من أمك أنت الآخر. أنا موجود، وأنت تحاول أن تسوّغ لنفسك كل هذا. لا تريد أن تفشل خطتكم. إثبات وجودي سيثبت فشل دفاعكم تجاه الواقع، وستُهزمون! هل تعتقد أن خيالك سيردع الحقائق؟ حتى وإن كنتُ فعلًا، كما تقول، صورةً متخيلة في رأسك، ألن يعني ذلك أنك مجنونٌ بالفعل كأمك؟ الأفضل أن تُسقط عنك هذه التهمة يا بني، وتعترف بأنني حي، وربما حي أكثر منك أنت، كوني أنا من وهبتك الحياة.

شعرتُ بدوارٍ حاد من كلماته المستفزة، فنهضت وزأرت في وجهه، مهدّدًا ومتوعدًا: إن لم تكن ميتًا، فيجب أن تموت إذًا!

صحوت من دوختي على طرق الباب. التفت، وإذا بميري تفتح الباب، تقول بأن راشد يريدني. التفتُّ للكنبة التي كان يجلس عليها والدي، وإذا بها فارغة.

زفرت، وشعرت بحبة العرق على جبيني وقد سقطت على رمش عيني اليمنى. أخبرتها أني قادم، ورحلَت. فتحت الزرّ

العلوي لدشداشتي وأخذت أتنفّس بعمقٍ وأتأمل ما حدث للتو. يا إلهي، كدت أصدقه. لا أدري ما الذي كنتُ أنويه عندما استدعيته. اللعنة! لقد وصلت لدرجة عالية من التخيل كادت أن تضيعني. يبدأ الجنون حين يكون خيال المرء أقوى منه! يبدو أنني أضحيت ضعيفًا، وهذه اللعبة خطرة.

وما أن عدت لمجلس لعزاء حتى رأيت راشد يتقدّم مسرعًا نحوي وقد اصفرّ وجهه، وقال متأتئًا: لن تصدّق من هنا.

سألته وقد أنهكني التعب: من؟

قال: والدنا.

الشاب الذي يقف إزاء إشارة المرور

ثمة حمامةٌ ترفُّ الآن كنقطةٍ سوداء وسط قرمزيّة السماء، تطفو فوق تكدّس البيوت المتّشحة بظلالٍ دامسة بخفة الراحل إلى البعيد. من شأن المرء أن يُقدّر بأنها تنأى، إذ كان ظلّها ينحفُ مع مرور اللحظات، متلاشيةً مع حدّة سطوع حمرة الأفق المتوهّج. كان غسقًا مخيّمًا على إحدى ضواحي الكويت الهادئة، في إحدى تلك الأيام التي تمضي برتابة، ولا سبيل للمرء لأن يتذكرها.

كان متكئًا على عمود إشارة المرور الصدئ، يتطلّعُ بسكونٍ ناعس نحو تلك الحمامة، ساكنًا بهدوء الموقن بأن العالم سينتهي بعد دقائقَ قليلةٍ، مأخوذًا بشروده إلى حدٍّ أنه لم يلحظ عدد الأعين التي كانت ترمقهُ من وراء زجاج السيارات، وهي تكبحُ عجلاتها إذعانًا لاحمرار إشارة المرور.

رغم تواري الطائر الآن، وتجاوزه لخطِّ المدى، إلا أن الشاب لا يزال هناك، يُعاين الموقع ذاته الذي تلاشى من خلاله الطائر، ذلك المنفذ إلى الماوراء، وكأنه يخشى أن يلتفت لحظة، فينسى إحداثيات المخرج الوحيد إلى الأبد.

تتصاعد من وقتٍ لآخر بعضُ أصواتِ أبواق السيارات، نظرًا لتأخُّرِ الصف الأول من متابعة المسير، رغم أن الإشارة أضحت خضراء لثوانٍ عدة. يمكن القول بأن كل من كان يقف في الصف الأول، والثاني، وأحيانًا الثالث، كان يراقبه ببحلقةٍ متفحّصة. وباستطاعة الناظر إليه، ألا يلاحظ هيئةً تليقُ بهذا الفعل المبهم؛ لا شعرَ أشعثُ، لا قدمين حافيتان، لا دشداشة متعفرة، ولا حتى عربة خضروات بجانبه. بل كان على عكس ذلك كله؛ شابًا يافعًا يقفُ بدشداشته المكوية، ونسفته المثبتة بالنشا، وذقنه اللامع، وشنبه المحدّد. إنه أحد أولئك الذين لا يمكن أن تميزهم وسط الحشود، غير أن الوحدة من شأنها أن تضفي تميزًا فائقًا على معتنقها، مهما كان رتيبًا في مظهره.

«لا شك بأنه مجنون» خمّن بعضهم. «لا يمكن أن يكون

كويتيًا» أردف بعضهم الآخر، بيد أن الجميع اتفق على أنه يُشكّل منظرًا يستحق المشاهدة، خاصة وأنك لا تملك خيارًا أفضل أثناء انتظار الإشارة حتى تخضرّ.

كانت قرمزيّة السماء تتراجع الآن نحو المدى الغربي بحسٍّ وداعيّ. وكان الشاب الذي يقف إزاء إشارة المرور لا يزال هناك، مستندًا عليها، ثانيًا قدمه اليسرى، يهرشُ ذراعه لتحقيق ضرورة بيولوجيّة، وكأن وجوده بأكمله لم يكن سوى ضرورة بيولوجية محضة.

التفتَ.

فطِنَ هذه المرة للعامّة التي كانت ترمقه بتوجّس من وراء زجاج السيارات. ارتعب بعضهم إبان التقاء النظرات بينهما؛ أخفضت شابةٌ هاتفها بسرعة، همست امرأة لطفليها بأن يشيحا بعيدًا، مثّلَ شابٌ بأنه يقرأ الإعلان المهترئ المعلّق بجانب الإشارة. توقعوا أن يتغير شيءٌ من سلوك الشاب الآن، يقدّم مشهدًا مثيرًا على سبيل المثال، يصرخُ بهم، يُثبت جنونه، أو يهرع خجلًا ليتوارى من حيث أتى. تصرّفًا من الممكن أن يكون موضوعًا شائقًا لمجادلته مع الأصدقاء، ومادة جيدة للتصوير والنشر عبر وسائل الاتصال، غير أنه سرعان ما أعرض، واستأنف مزاولته للتحديق في المدى، كأنما المسرح خالٍ من الجمهور.

تفشى خبرُ الشاب في فضاء الأقاويل والإنترنت. «ثمة مجنونٌ

يقف عند إشارة المرور». واشتهرت له مقاطع فيديو على وسائل الاتصال الاجتماعي المختلفة، ولم تتفق أيٌّ من القصص المرفقة مع بعضها بعض، حتى احتار المتابعون في حقيقة أمره، فأضحى حديث الساعة. وبعدما كان الموضوع محضّ تسلية، سخرية، شيئًا للتكلّم عنه وملء فراغ اليوم الرتيب؛ انقلب الحدث لرعبٍ يهدّد أمن الضاحية. «الليل يخيّم. والمجنون لا يزال هناك». تيقّظَ أهالي الفريج المجاور. «احذروا يا أهالي المنطقة. أبناؤكم أمانة».

تجمّعت زمرة رجالٍ كبارٍ في السن، واتفقوا على الذهاب والحديث إليه. كانوا خمسة. اقتربوا منه وهم يتلفّتون لبعضهم بعض. لم يكن الشاب مختلفًا عن مظهره من بعيد؛ انتبهوا الذقنه الحليق للتو، لساعة معصمه الفرنسية، نعله الإيطالية، وشماغه الإنجليزي.

«يا ولد» تقدّم كهلٌ تجاهه «عسى ما شر؟» لم يُجب الشاب الذي بدا كشيءٍ خارج السياق.

«لو سمحت.. تسمعني؟» أعاد الكهل النداء، في حين كان الشاب يحكّ ذراعه وكأنه ينفضُ ذبابةً ما.

«هيه! يا ولد!» التفت الكهل نحو الآخرين وقوّس فمه للأعلى، ثم تقدّم ليقف أمامه ويجبره على النظر إليه. «أنت، تسمعني أو لا؟ عيال آخر زمن!».

نظر له الشاب الآن، إذ لم يكن ثمة خيارٌ آخر، فالكهل ينتصب قبالته مباشرة، حاجبًا المدى من ورائه، فضاقت عينا

الشاب، وكأنه يحاول أن يفهم لم قد يحدث شيءٌ كهذا. لمح الكهلُ بطرف عينه جماعته التي بدت مستاءة من طريقة تطوّر الأمور، ثم التفت ناحية الشاب مرةً أخرى، والذي كان قد أزاح رأسه قليلًا لينظر من وراء كتفه لبقعةٍ غير مرئية على صفحة السماء.

انقضّ الكهلُ على الشاب ولكمه على وجهه، مما أسقط شماغيهما وقطّع أزرّة ثوبيهما، ولم يأتِ ذاك الهجوم من باب لعب دور البطولةِ والخفرِ على أمن الضاحية، بل للحفاظ على ما تبقى من كرامته، واسترجاع احترام رجال أهل الفريج له، الذي شعر بفقدانه من فرط ما انحطّ قدره أمام هذا الكم من التجاهل والاستخفاف البادِيَين على الشاب، بالصمت والإشاحة وحدهما. وكان من الممكن أن يستمر بعراكه ذاك مدةً أطول من تلك الثواني القليلة، غير أن الرجال تدخلوا في تفريقهما، وتهدئة الكهل الذي انتفخت أوداجه ونتأت عروقه واحمرّ وجهه، وأخذوه إلى بيته من حيث أتى.

عندما ضاق أهالي المنطقة من وجوده، أبلغوا مركز الشرطة. اشتكوا من تجاهل الشاب لهم، وزعموا أن وجوده مثيرٌ للريبة، حتى أنهم ألبسوه تهمة التربّص بالنساء والأطفال.

«لا أستطيع أن أعتقله». قال الشرطيّ اليافع بعدما ترك الموبايل الذي كان بيده. «لم يرتكب جريمة».

«ولكنه لا يرد علينا حتى!».

«أتظنها جريمة ألا يردّ عليكَ أحدهم؟».

«قلة حياء!».

«هذه ليست شغلتي». ثم تثاءب بإحباطٍ منطفئ. فها هو يقضي ساعات الفراغ بالتجول بين خدمات التواصل الاجتماعي، منتظرًا المهمة التي لطالما رآها كفؤًا القدراته العقلية والبدنية، فكيف تكون قضيته الأولى في حياته المهنية عبارة عن مساءلة معتوهٍ حول سبب وقوفه إزاء إشارة المرور؟ أين جرائم القتل والاغتصاب ومطاردة تجار المخدرات وألغاز عمليات الاختطاف؟ «ولكني سأتحدّث له ونرى».

كان الليل قد تفشى في السماء، رغم وجود بقعةٍ أرجوانية غامقة في الأفق الغربي، الدليلُ الوحيد المتبقي على أن الشمس قد مرّت على هذا المكان المعتم. كان الشاب الذي يقف إزاء إشارة المرور متسمرًا في مكانه، مصالبًا ذراعيه، يقبض على شماغه بيسراه، كاشفًا عن شعرٍ قصيرٍ مسرّحٍ على الجانب الأيمن، ساكنًا لا يزال، مأخوذًا بما تبقى من تلك الصبغة الملونة في الأقاصي.

اقترب منه الشرطي بخطواتٍ متأنيّة. رفع قبعته التي لم يعتد على ثقلها بعد، ومرّر أصابع يمناه بين خصلات شعره الخفيفة، ثم أنزل رأسه قليلًا بتوجّس، وسأل «يعطيك العافية. هل تنتظر أحدًا؟». لم يتلقَّ إجابة. ظل الشاب ساكنًا، ولا يمكن للمرء أن يحدد الأكثر سكونًا بينهما: هو أم إشارة المرور.

لاحظ الشرطي أن الشاب بمثل عمره تقريبًا، ولم يلتمس في منظره شيئًا يوجس بالخطر. كرّر الشرطي سؤاله بأوتوماتيكيةٍ فاترة.

«لستُ متأكدًا». تكلّم الشابُّ أخيرًا. «ربما».

«ربما؟» تقدّم الشرطي خطوةً إلى الأمام «الناس يريدون إجابة. هل تنتظر أحدًا أم لا؟».

فرك الشابّ عينيه كمن استيقظ من النوم لتوّه، وراح يتثاءب زهاءَ الخمسِ ثوانٍ. «ليس شخصًا بعينه». نطقها بشكلٍ غير واضح وهو يغالب اتّساع فمه، ثم دعك جفنيه بسُبابتيه ليمسح الدموع المتجمعة.

التفت ناحية الشرطي «وأنت؟».

«أنا ماذا؟».

أشاح الشاب نظره ناحية الأفق مجدّدًا. «تقول إن الناس يريدون إجابة. وأنت؟».

عقد الشرطي حاجبيه. ثم التفت ناحية محفل الوجوه المتلذذة بالمتابعة من وراء النوافذ. «لا أعتقد أني بحاجة إلى ذلك».

صمت الشاب، ثم أخرج الشرطي موبايله من الجيب الخلفي. كان الشاب قد شكّل جمهورًا يتابعون أخباره من خلال شبكات التواصل الاجتماعي. حتى أن بعض النساء توصلن إلى أنه مسحور، وخمّنت جماعة بأنه يحاول أن يشتهر ويجرّ الأنظار حوله

قبل أن يقدّم نفسه إلى الناس ككوميديان أو مدرّب على الطاقة الإيجابية أو حتى مناضل ضد الحكومة. وبين معمعة التعليقات الساخرة والمرتعبة حول الظاهرة، كتب أحد الأشخاص عبر تويتر «يا جماعة، أحاول أن أفهم هنا، ما الغريب تمامًا في هذا المشهد؟».

«أأنت مجنون؟» سأل الشرطي بفجاجة قبل أن يتدارك موقفه «أعني .. لا تبدو لي خطرًا كما يدّعون. ولكن أشعر بأن عليّ أن أسألك هذا السؤال على كل حال».

«مجنون؟» رفع الشاب كتفيه «لا .. لا».

«ولكن كيف لي أن أتأكد. كلكم تقولون ذلك».

«من نحن؟».

«المجانين».

«أين هم؟».

«ليسوا هنا».

رمق الشاب صفوف السيارات والعيون الراصدة بداخلها «هل أنت متأكد من ذلك؟».

«لا» تهكّم الشرطي وهو يتفحصه من رأسه وحتى أخمص قدميه «أبدًا».

كان الشرطيّ يتلفّت من لحظةٍ إلى أخرى. لم يكن المحيط

يُسهم في خوض استجوابٍ رصين. إنه مُراقَب، مسلوبٌ من خصوصية التصرّف. يُخرج هاتفه من جيبه ويلقي عليه نظرة قبل أن يدسّه من جديد، يتلفّت، ينظر إلى الساعة، ثم يعود إلى مراقبة الشاب، والسيارات تحيطه دائمًا بحركتها ووقوفها.

«حسنًا» تقدّم الشرطي نحوه خطوتين. «لنكن واضحين، وأريد هذه المرة إجابة صريحة. لماذا تقف هنا؟».

«أقف ماذا؟» زمّ الشاب فمه بتعجّب.

«تقف هنا؟».

«لماذا؟».

«ماذا؟».

«....».

«لماذا تقف هنا؟».

أرخى الشاب كتفيه «ما المشكلة؟».

«وقوفك هنا يثير الريبة. أنت تعرف ذلك. الناس قلقون».

«لا أظن ذلك طال عمرك». ألقى نظرة نحو صف السيارات المتراصة «إنهم يستمتعون فيما يبدو».

«يستمتعون؟» التفت الشرطي بعفويّة وكأنه يريد أن يعاين ما فاته.

«أُقسم لكَ أني رأيت الأشخاص ذاتهم يعودون للإشارة مرارًا فقط ليتمعنوا فيّ أكثر».

«إنهم قلقون». عاد الشرطي لينظر إليه. «لا تستطيع أن تلومهم».

«لا طال عمرك». ثنى رجله اليسرى على عمود الإشارة. «إنهم مستمتعون. انظر إليهم».

أطلق الشرطي زفرةً ساخرة. «ولم بلغوا عنك إذًا؟».

«ربما لا يريدونني أن أسبقهم ...» تمهّل لحظة قبل أن يكمل «أعني... سيخيفهم كثيرًا إن بقوا هنا، وعلموا لاحقًا بأني وصلت».

نظر الشرطي للمدى الذي اختفت عليه أمارات الضوء، وعاين انتشار الدجى بعتمةٍ لا تكشف عن نجمةٍ واحدة، وأيقن بأن كل شيءٍ كان محجوبًا لحظتها، وبأنه لم يعد يفهم شيئًا.

«أين تظن الطائر اختفى؟» همس الشاب كمن يخشى أن يفضح سرًا.

«أيّ طائر؟».

«حمامة. اختفت».

«أين؟».

«هذا ما أحاول معرفته».

أشاح الشرطي نظره ناحية الأفق الذي كان يتأمله الشاب، وتسمّر على وضعه دقائق عدة، محاولًا أن يخرجَ بشيءٍ من هذا كله.

«حسنًا». أعرض الشرطي وكأنه يحاول أن يطرد شيئًا من رأسه. «أظن أن الوقت تأخر» أخرج موبايله من جيبه وانعكس الضوء على وجهه، ثم تابع كلامه دون أن يدسه هذه المرة. «الناس هنا قلقون، عليك أن تتحمّل ما قد يفعلونه بك. خاصة كبار السن، فإنهم منزعجون. وإن أردت رأيي، فلا مشكلة لديّ بما تفعل. رغم أنني لا أعرف ما الذي تفعله، ولكني أفهمك». صمت قليلًا قبل أن يتابع، «على كل حال، احم نفسك إن حاول أحدهم أن يؤذيك، فلن أكون هنا، ولكني قريب». ثم التفت مبتعدًا، متخلّصًا من غواية حسم الأمر، وخطا نحو سيارته المركونة على بعدِ عمودَي إنارة، وظلّ الشاب هناك، متخشّبًا في مكانه من غير أي إيماءة، وكأن كل ما حدث كان مجرّد حلم، لم يحدث على الإطلاق.

بعد ساعاتٍ قليلة، وقبل بزوغ الفجر المخضرّ بالسماء، كان الشاب قد اختفى، ولم يفتقده أحدٌ إلا بعض المتململين الذين عادوا لرتابة الطمأنينة من جديد. كما وجد رجال الشرطة ذريعة جيدة للسخرية من زميلهم المستجد، الذي عجز عن حلِّ قضيةٍ بتفاهة مساءلة شابٍ يقف إزاء إشارة المرور، حتى أن بعضهم

أقسم بأنه رأى ذاك الشرطي اليافع يعود أحيانًا إلى ذلك المكان، عند الإشارة، ينظرُ إلى السماء كالمعتوه وكأنه يفتّش عن شيءٍ ما.

لأنه حرّك عينيه فحسب

حدث ذلك في بدايات القرن الماضي؛ رجلان يجلسان في الصحراء بقرب تلّة. لا ألوان هناك بعد. الوقت قُبيل الفجر، قبل أن تكتسب الأشياء أشكالها وحوافها. الهواء النديّ متضوّع برائحة فحمٍ مطفئ مختلطٍ بالتراب. مُطلق نائم، ملتحفٌ ببشته ولا يمكن رؤية شيء منه عدا لمعةً على عظمة أنفه الأعقف، شعيرات لحيته البيضاء المتنافرة، وفمه المفتوح. أما مبارك فقد كان رابضًا في مكانه، متكئًا على حزمته، لا ينام الليل كعادته، منذ ذاك الحلم الملعون، الذي مات فيه واضطّر لأن يقف في عزائه، لأن لا أحد هناك في المجلس ليأخذ عزاءه.

كان الهواء الذي يلفهما رطبًا، باردًا، ولا أحد يعرف في أي يوم أو أي شهر وقعت تلك الحادثة بالضبط، إلا أنها كانت في بداية فصل الشتاء، أيام جويريد، في مكانٍ ما من شمال الكويت. لم ينظر مبارك إلا أمامه، وكأنه يحاول أن يرى الغبش، وأن يكشف

تلك اللحظة الرشيقة التي يتشكّل بها خط المدى، ثم يبدأ العالم من حوله بالتحول للونين فقط: الأزرق والأصفر.

راح يفكّر بتفسير الحُلم: ما معنى ألا يأخذ أحدٌ عزاءه؟ هل سيموت بلا ذريّة؟ ولكن منيرة حبلى الآن بالأول، وستضع هذا الشهر بإذن الله. كما أنها ستضع له ثانيًا وثالثًا ورابعًا كذلك. لم هذا القلق إذًا؟ شعر مبارك بحكّة في ذراعه، ثم تمطى وتثاءب، وبينما كان يفعل ذلك، حرّك عينيه ناحية مطلق، ليس لأنه أراد رؤيته -فقد شبع من مراقبة النائمين مؤخرًا، وخاصة رفيق عمره مطلق- ولكنه رآه في تلك اللحظة بالذات، لأنه حرّك عينيه

فحسب، وإذ به يلمحُ أفعى تجرّ نفسها بالقرب من رأس مطلق، فما كان منه إلا أن صرخ جزعًا وتلقّف أقرب حجرٍ منه ولفع رأسها فانبعج تحت قوة الرّمية.

هبَّ مطلق من نومه فزعًا بوجهٍ لم يتمكن مبارك من ملاحظة شكله، ولكن خمّن بأنه لو كان للخوف وجه، فعليه أن يكون وجه مطلق الذي ولأول مرة، منذ سنواتٍ ربما، يستيقظ في العراء على صرخة. ما إن علم مطلق بالذي وقع حتى تمتم: واللعنة! ثم داس الأفعى بنعله ولعن إبليس، رغم أن الأفعى قد قضت نحبها منذ مدّة. كبح مطلق لسانه عن الشّتم، وراح ينظر من حوله وكأنه يريد التأكد من أنه ما زال حيًا، ويعطي كل شيء نظرةً أخرى، نظرة تشبه الامتنان والتقدير. عاد ببصره لمبارك الذي انكفأ على ما كان يشغله قبل أن يحدث هذا كله. عدّل مطلق بشته بطريقة أعطته وقارًا لا يشبه وجهه النائم وهو فاغر الفم، وقال بعظَمةٍ مصطنعة بأنه ممتن له، وأنه سيفعل أي شيء يأمر به لأنه أنقذ حياته. شاهت عينا مبارك عميقًا في عينيه لثوانٍ عدة، أشاح ثم قال: عساك تسعد يا بو خلفان، عمرك بعمري أفداه. فأصرّ مطلق أن يطلب شيئًا، وإلا لن يخاويه مرةً أخرى. فما كان من مبارك إلا أن شاركه هاجسه: أتوجّس الموت وأنا أخوك. إن جابت منيرة بنت، زوّجها خلفان، هذي وصية مني لك. خايف أروح والبنت تقعد. نفس عماتها. ما عندي غيرها يا بو خلفان. تعوّذَ مطلق من إبليس وقال: تم. ثم قال بأنه سيذبح خروفًا حتمًا عندما يعودان.

ولم يكن مبارك مخطئًا. لقد خرّ ميتًا فعلًا قبل أن يرجعا. قالوا أسبابًا عدة في موته، واتفقوا بأنه لم ينم منذ أيام طويلة، وعليه الآن أن يعوض كل تلك الليالي بليلة واحدة طويلة لا تنتهي. أما مطلق فقد أصرّ: هذا يومه، لقد رآه.

بعدها بشهرين أنجبت زوجته منيرة بنتًا أسموها شاهة. كان إبلاغ خبر ولادتها مصاحبًا لإعلان مطلق عن زواجها من ابنه خلفان الذي يبلغ من العمر ثلاث سنوات. إنها وصيّة الغالي مبارك، منقذه من الموت. وبالتالي صارت وصيّة مطلق ذاتها لابنه قبل أن يفارق الحياة. طفلٌ صغير، بدشداشة مشمرة، ويدٍ غارقة بلعاب الفم، قالوا له: أنت زوج شاهة. فابتسم، ظنًا منه أن شاهة حلاوةٌ ما.

كبرَ خلفان على هذه الفكرة، وكان يعتبر نفسه الأكثر حظًا على البسيطة. لم تكن شاهة صبيّةً عادية. إنها تُسقط الطير من السماء على حد قوله، رغم أن بقية الصبية من العائلة لا يتفقون معه، ويقولون إنها قبيحة، أو عادية، ما عليها زود، ما يؤدي ذلك لعراكٍ عاتٍ بينهم. ولم يكن ذلك لأنهم لم يتفقوا في الرأي معه، أكثر من أنهم قد كونوا رأيًا في الأساس بامرأته، بشيءٍ صار يمسّ شرفه. أما شاهة فلم تبتسم له مرة، وربما كان هذا ما يعجبه فيها. كان يقول إنها رزينة وبنت أصول، مع إني زوجها، حلالها. كان يلازم أمه في العزائم، في الأعراس، في كل مناسبة. ما إن تهمّ أم خلفان بالخروج، حتى تجد الولد وقد تشبّث بطرف عباءتها

ليتبعها. كل ما كان يفعله في تلك المناسبات هو التوجّه لمكان شاهة، تلك الفتاة التي تخصّه، التي أوصاه أبوه عليها، لعبته الجديدة التي سيحصل عليها ما إن يكبر. في العزائم، كان أول ما يفعله في حوش المستضيفين قبل أن يدخل هو التفتيش عن نعليها بين عشرات النِّعل والأحذية المرمية أمام باب الصالة؛ فخلفان يعرفُ جيدًا ما الذي يبحث عنه، نعلين صغيرتين لونهما وردي ومرسومٌ عليهما فراشةٌ صفراء. فإن وجدهما أخرج يده من فمه ودخل مبتسمًا، كاشفًا عن صفّ أسنانه الصغيرة المتكسّرة. وإن لم يجدهما، ذاك يعني أنه سيربض بجانب أمه طوال العزيمة، يجرّ طرف ثوبها ويقول: يالله، لنرجع. أما في الأعراس فكل ما كان يفعله هو التوجه لمكان لعب الفتيات، والبحث عن تلك الفتاة التي تلبس الفستان البرتقالي. هو الفستان ذاته في كل الأعراس. لقد بات يعرف كل شيء يخصّ شاهة، لأنها أشياء بطبيعة الحال، تخصّه هو كذلك.

وقد تزوّجها خلفان في رأسه منذ أن عرف معنى الزواج. ونضج وهو يجامعها كل ليلة في خياله، يلمس نفسه في كل مرة ويتذكّر حوضها المكتنز وهي تركض، ثدييها اللذين يكبران مع الوقت، وجهها الأسيل وشفاهها المتدليّة. لقد تزوجها وربما أنجب منها اثنين أو ثلاثة، وقد أطلق عليهم أسماءً كذلك؛ هذا أحمد وهذي مشاعل وهذا حمود، حتى أصبح لديه قبيلة بأكملها في رأسه، وبدأ يتدخل في أقدار أبنائه ولمن يزوج من، كل هذا

ولم يبلغ خلفان بعدُ سنّه العشرين، السن المنتظر كي يدخل على امرأته.

وعندما حانت الساعة أخيرًا، جاهرت شاهة بكلمتها: لا.

أخفضَ فلاح رأسه وهو يتمتمُ بالخبر. جاش خلفان في الديوانية: شنو! بدأ الرجال يتهامسون، وارتبك فلاح. هاجَ خلفان: أنت ابن عمها، رجّال البيت، كيف يعني لا؟ تردّدَ فلاح: ستَعدل عن رأيها... أعدُك. ثار خلفان: تَعدل؟ منذ متى ونحن ننتظر رأي النساء؟ توجسَ فلاح بصوتٍ منخفض: ذاك أول ياخوي... اصبر عليها بس. قام خلفان واقفًا وقد كسا العرق حاجبيه: الله يرحمك يا مبارك، آخر رجال هالبيت. وهمّ خارجًا من المجلس.

لن ينسى أبدًا فلاح تلك الإهانة، التي كان يستحقها بنظر كل من كان موجودًا يومها، وكل من سمع بالقصة من بعدها. شاهة متزوجة من خلفان قبل أن تولد حتى، كيف ينتهي الموضوع الآن؟ قال له واحدٌ من جماعتهم يدعى سيف: أيُخصى الرجل إن درس بمدرسة؟ وشنّت قطيعة بينهما منذ ذلك الحين، حتى أن سيف قال لاحقًا: كلمتي أستحق القتل عليها، وها هو فلاح لا يفعل شيئًا إلا أن يقاطعني. أخبرتكم، المدرسة تُخنّث الرجال!

فعل فلاح كل ما في وسعه. كلّم النساء؛ عمته أي أمها، وأمه، وعماتها، وأخواته، بناتهن، الجيران، كلّم جميع من قد تسمع منه شاهة. قالوا: تتزوجينه. قالت: لا. قالوا: بل تتزوجينه. قالت:

على جثتي. قالوا: استغفري ربك. قالت: لما تستغفرونه. قالوا: أبوك. قالت: أنا.

ثارَ خلفان. مكث في بيته يتفكّر. أخذ يذرع الديوانية جيئة وذهابا. شعر بحرارةٍ في رأسه. وراح يتساءل: كيف يحدث كل هذا؟ من المسؤول؟ أتكون عاشقة لأحدهم؟ وقف ينظر لصورة والده المعلقة على الحائط. أبيض وأسود. عينان غائرتان. فاه مفتوحٌ قليلًا. أنفٌ معقوف. شعيرات لحية بيضاء متنافرة. بدا وجه والده هذه المرة مقرّعًا إياه. كيف لا تعمل بالوصيّة؟ امرأة تكسر كلمة أبيك؟ أفا يا خلفان! أفا وأنا أبوك!

طلبَ مقابلتها. خرج من منزله وكانت الشمس على حافّة الغروب، وتوجه لبيت عمّه وخبط على الباب، قال: نادوها. ودخل الحوش. تعالت الأصوات من داخل المنزل. صرخ النساء: سيقتلها! ورغم كل ذلك، استطاعت شاهة أن تتملّص منهم وخرجت إلى الحوش. كان خلفان هناك، يمسح الحوش جيئةً وذهابًا. لم يعد بالإمكان مشاهدة الشمس الآن. لفحه هواءٌ بارد، تشبه النسمة التي لفحت مبارك، أبا شاهة، قبل سبعة عشر عامًا. جاءه صوتها: خير؟ رفع رأسه وإذا بشاهة تقف هناك. كانت منتصبة شعثاء الشعر، حافية القدمين، الشيلة منسدلة على أكتافها، وثوبها المنزلي الأصفر يكشف القليل من صدرها القمحيّ المكتنز. أما النساء، أمها وعماتها وبناتهن، فقد تجمّعنَ يتنصّتن من وراء باب الصالة.

قال: تمشين معي البيت. قالت: مو ثعبان يزوجني. قال: أبوك من زوجك. قالت: نحن عالقون في هذا الزفت بسببك. تنازل عن عنادك. قال: كلمة أبي. قالت: الله يرحمه. قال: كلمة أبيك. قالت: الله يرحمه. قال: أنتِ لا ترحمينهما. قالت: هما ما رحماني. قال: تعشقين يا شاهة؟ قالت: لا. قال: اقسمي. قالت: براس أبوي وأبوك. قال: أنتِ امرأتي. قالت: محرّم علي. قال: أبغضك، وأنتِ امرأتي. قالت: ألف حرام عليّ. قال: محرمٌ عليك الرجال كلهم إذًا. وطفق مدبرًا من منزل عمه، وارتفع في الفضاء صدح أذان المغرب، ما أعاقه عن سماع آخر كلماتها التي صرخت بها. ماذا قالت؟ لا يهم. أقسمَ وهو يمشي ألا تتزوج إلا إياه. بهذا الأذان! وهكذا أباد خلفان كل احتمال بزواج شاهة من غيره، ولينقطع نسل مبارك إن لم يجئ من ظهره.

ما إن تفشى خبر رفض شاهة لخلفان بين الناس، حتى توافد الخطّاب عليها. وكل ما كانوا يسمعونه من ابن عمّها فلاح: اخطبوها من خلفان، هي له. وكان يقوم بعدها من المجلس. مرّة، عندما خطبها ابن المسيوي، وكرّر عليه فلاح الجواب ذاته، علّق ابن خالته جويمعة قائلًا بصوتٍ منخفض: قطعوا رزق البنت، زوجوها وخلصونا! فأصدر بعض الرجالُ همسات تومئ بالموافقة، فقال فلاح، الجالس في صدر الديوانية، بصوتٍ أجش: والله ليذبحها خلفان، ويذبحنا كلنا معها. وكان على حق، إذ توعّد خلفان بقتلها هي ومن سيتزوجها في حال وقع الأمر.

كيف يتزوّج أحدهم زوجته؟ وأبناؤهم؟ أحمد ومشاعل وحمود؟ إنهم ينتظرون، يقرعون رأسه كل ليلة، وعليه أن يتصرّف.

باتت القضيّة تخصّ عائلة بأكملها الآن، لا خلفان وشاهة فحسب. تضرّعوا، توسّلوا، وحلّفوها. قالت: لا. وهذه المرة أجبروها، التمّوا عليها، ضربوها. قالوا: لا خيار، أنتِ ذاهبةٌ إلى بيته. قالت: هذا بيتي. قالوا: ليس بعد الآن. قالت: سأقتل نفسي، وسأقول لأبي كل شيء. ظنوا أنها تمزح. في اليوم نفسه، رمت بنفسها من أعلى سطح المنزل، ولكنها لم تمت، بل أصيبت بكسرٍ في قدمها اليمنى وكتفها الأيمن. لعنت حظّها وهي تصرخ، وراحت النساءُ يهيلونها بالضرب رغم كسورها، ما تسبب لاحقًا بعرجٍ دائم.

توالت الأيام، وظلّت شاهة حبيسة البيت، ممنوعة من الخروج، تقضي ساعات في حجرتها لا تفعل شيئًا. لها حجرة في خلفية المنزل بلا نافذة، تليقُ كما يؤمنون بامرأةٍ عاصية، قليلة حياء، غير جميلة حتى، ومع كل هذا عرجاء. كانت غرفتها تحتوي على خزانةٍ صغيرة، فراشٍ على الأرض، وبجانبه صندوق من الخشب لونه أخضر، تحتفظ فيه بحاجاتها الأكثر حميمية من أيامها الماضية؛ ثوب طفولتها البرتقالي، نعلين صغيرتين لونهما وردي ومرسومٌ عليهما فراشة صفراء، وأشياء أخرى تسرّ لها في الأوقات العصيبة بأن ثمة ما يستحق المقاتلة من أجله. أما خلفان فقام بما يجب ليكسر من شاهة، وتزوّج من ابنة خاله نويّر، أنجب منها فتاة سماها نوف، وماتت كلتاهما في حادث سيارة بعد

سنتين. بعدها بأسبوع، سافرَ مع ابن خالته لمصر، وعاد بزوجةٍ من هناك، اسمها ليلى. استغرب الناس من سرعة فعلته، إذ أنه لم يحترم المتوفاة وابنته. أنجب من ليلى ولدًا ثمّ طلقها. صار اسمه بومحمد الآن. ومرةً أخرى، بعدما توالت الأيام، بل والسنين، ونسى الناس قصتها. تزوّج خلفان مرةً ثالثة من امرأة تدعى سويرة، تقرب له من بعيد، أنجبت له أربعة أولاد وبنتين.

أما شاهة فقد فُكّ الحصار عنها، صار عمرها يناهز الأربعين الآن. سمنت إثر قلة حركتها وعرجها، وراحت تخرج من البيت مجدّدًا، تزور عماتها وبناتهن، صديقات طفولتها وبناتهن، وتتردّد أحيانًا على الجمعية لتزجية الوقت. التحقت فيما بعد بالمدرسة في عمر الخامسة والأربعين ضمن مشروع محو الأميّة. درست، تعلّمت كيف تكتب وتقرأ. كانت تسأل بعض البنات الصغيرات من العائلة لكي يفشوا لها ما قد يجيء في الاختبارات، وأحيانًا تتحدّاهن في تهجئة الكلمات وحل المسائل الرياضية. وأول ما فعلته ما إن أتقنت القراءة، كان تلاوة القرآن الكريم، أرادت أن تفهمه، لا أن تردّده فحسب. ولكنها مع ذلك، فشلت في فهمه، ولم يعن لها ذلك الكثير. لم تعد بحاجة لدعامة تقوم عليها. أرادت أن تقرأ أكثر، أن تعمل. لم يعجبها ما حالت إليه قريباتها. تزوجن جميعهن من رجالٍ لا يعرفنهم، وما زلن لا يعرفنهم، حتى بعد قضاء عشرات السنين برفقتهم، وانجابهن لأبناءٍ عدّة. عملت لاحقًا في إحدى المدارس الحكومية كبائعة في المقصف،

ومديرة للفرّاشات، وأحيانًا منظمة للنشاطات الصباحية. هذا ما كان توفّره لها شهادة المرحلة المتوسطة على كل حال. توقفت عن العمل بعد اثني عشر عامًا عندما بدأت ركبتاها بالتخشّن، وعرجها يسوء، ولزمت البيت من جديد، وتفاقم وزنها أكثر من قبل، وراحت تعلّم صغار العائلة بعض الدروس، وتسترجع كل ما تعلمته برفقتهم، تسمع منهم، تفهمهم، تناقشهم، تكبر معهم من جديد، تعيش حياة أخرى في زمنٍ مختلف كان من المفروض أن يكون زمانها. كانت شاهة تحرّر قدرها بالهرب لطفولتها، وتعيد بشكلٍ ما تصحيح كل أخطاء الواقع.

كان عمر خلفان يناهز الثمانين عامًا عندما أدخلوه غرفة الإنعاش في مستشفى العدان. كان له وجه أبيه، عينان غائرتان، أنفٌ معقوف، لحية بيضاء متناثرة، فاغرًا فمهُ قليلًا. كان يهذي وهو محاطٌ بأولاده السبع، وزوجته سويرة، والكثير من الأقرباء. كل ما كان يقوله خلفان ساعتها: احرصوا أن تتزوّج شاهة. احرصوا أن تتزوّج شاهة.

ربما لم يدرك وقتها أن شاهة كانت بين هؤلاء الذين يلتحفون بسريره. لقد طلبت المجيء من زوجة ابن عمها فلاح، الذي مات قبل بضع سنوات. قالت لها: أبي أشوفه. وها هي تقف الآن بين الجموع، ربما لم يعرفها خلفان بجسدها المكتنز تحت العباءة، ووراء البرقع، بسنواتها السبع والسبعين. متى رآها آخر مرة؟ في الحوش، بثوبها الأصفر المنزلي، شعرها الأشعث،

شيلتها المسدولة على كتفيها، وبروز القليل من صدرها القمحيّ. مرّت أكثر من ستين سنة من رؤيته لشاهة، ولا يبدُ أنه غادر ذلك الحوش حتى الآن، ولم يرفع المؤذن أذان المغرب بعد. وبينما كان يردّد تلك الوصية أمام الأحبّة، نادى بأسماء استنكرها الجميع: أحمد، مشاعل، حمود، لكن لم يملك أيٌّ منهم فكرة عن هؤلاء، إلا شاهة، التي شاهت بعينيها، وكأنها تعرف هذه الأسماء جيدًا، بعد رؤيةٍ ما زاولتها، وتعرفت على كل ما كان يمكن أن يكون. شعر خلفان بلفحة نسيم بارد، تشبه بداية الشتاء، وقت جويريد، ثم مال برقبته ونظر إلى الزاوية التي كانت تقف فيها شاهة، ليس لأنه تعرّف عليها، بل لأنه حرّك عينيه فحسب، ثم ماتَ بهدوء، دون أن يغلق عينيه عنها.

أكثر ما تعجّب له الناس كان حضور شاهة لتأخذ عزاءه، وكان الناس يقدّمون لها التعازي أكثر من زوجته سويرة. عاشت بعد ذلك سنواتها الأخيرة في حجرتها، كما عاشت طوال عمرها، مع الخزانة ذاتها، الفراش ذاته، والصندوق الخشبيّ الأخضر ذاته -لقد بهت لونه الآن وتقشّر- والذي يحمل بداخله حياتها بأكملها. كانت تفكّر في أيامها الأخيرة بخلفان، وشعرت، بشكلٍ ما، بأنها أضحت أرملة، دون أن تكون يومًا زوجة.

ماتت شاهة عن عمرٍ يناهز الرابعة والثمانين، ولم يكن ثمة أحد من ذريتها ليأخذ عزاءها.

لا تقل لهم أنه قلمي

١

زميلي في العمل يُدعى جابر، وهذا كل شيء.

عندما نقلنا للمبنى الجديد، كان على كل اثنين منا، نحن موظفي الدرجة الرابعة عشرة، أن يتشاركا في مكتبٍ واحد. كنت في إجازةٍ عندما وُزّعت الأسماء، ولذا لم يكن لي يدٌ في اختيار زميلي. عندما رجعت أبلغوني بأني نُقلت لمكتب بي-١٩، وزميلي الجديد يدعى جابر. تساءلت: من جابر؟ قال جاسم: ممم، واحد، اللي معانا، كلّه يسكت. ويبدو أن وجهي لم يتبدّل لحظتها، إذ ما زال حاجباي معقودين، ونظراتي مستفهمة، فاسترسل محمد حياتي وقال: جابر الضعيف، شنب، سكسوكة، أبيضاني، يبتسم. فأخبرته أن هذه المواصفات غير مميزة حقًا، فجميعنا هنا بالغترة والعقال نكاد نشبه بعضنا بعضًا، وكل الصفات التي أدلى بها تنطبق على غالبية الموظفين. وأضفت: قل لي شيئًا مميزًا. فقال: لا أعتقد أنه يملك أي شيء مميز. فكّر في أقل واحد مميز بيننا، هو هذا.

ولم يكذب محمد حياتي. تعرفت على جابر يومها وأنا مرتابٌ من هذا الرجل المبهم الذي لا يعرفه أحد. أحيانًا بعض المقدّمات من الآخرين قد تجعل الأمر أيسر في التعامل مع غريبٍ ما، فضيحةً من ماضيه مثلًا، أو خطيئةً لا تغتفر، شيء يدفعك للوثوق بأن من تتحدّث إليه حقيقيّ، سيفهمك وتفهمه. أما الغرباء تمامًا فهؤلاء هم الورطة الحقيقيّة. عليك أن تكون أول من يتعرّف عليه، أن تكون في وجه المدفع، بلا مقدّمات. في الصباحات التالية، كنت أجتمع مع أصدقائي بالعمل في استراحة القهوة؛ محمد حياتي وماجد وجاسم. كلٌ منهم بدأ بالنميمة بزميله الجديد، والتفصيل بطبائعهم الجيدة والسيئة. ورغم أن بعضًا ممن نتحدّث عنهم في الحقيقة من أصدقائنا، إلا أن الساعات لن تنقضي إن أخذنا الأمور بهذه الجدّية. قال ماجد مثلًا بأن زميله بوعبدالرحمن يخلع حذاءه وتفوح رائحة جواربه في الحجرة. وقال جاسم بأن بوتركي يشاهد مسلسلات إنجليزية على موبايله ولا يكتم الصوت. عندما استخبروني عن جابر، ارتبكت. احترت بالإجابة. عدّلت من جلستي ورحت أنظر لنقطةٍ ما خلفهم وقلت: مدري. لم أرتبك لأنني لا أعرف شيئًا عنه، طز. ما أربكني أنني لن أضيف شيئًا للجلسة، وسأبدو مملًا بالنسبة لهم. كنتُ صادقًا، ولم أكن كما اتهموني بأني أدّعي الشرف ولا أريد أن أشاركهم الحديث. قد يبدو الأمر مريبًا، إلا أنني بالفعل لا أعرف أي شيء مميز عن هذا المخلوق الذي يشاركني الحجرة ذاتها لثمان ساعاتٍ طوال الأسبوع.

شعرتُ لحظتها بالهزيمة، ورغبتُ باللعب.

توجّهتُ بعدها إلى مكتبنا ووجدت الباب مغلقًا، خمّنتُ أنه ربما يصلي بالداخل أو يكلّم فتاة على الموبايل، ولذا قرعتُ على الباب قبل أن أفتحه. وجدته هناك، لا يصلي ولا يتحدث بالهاتف، بل رابضًا بكرسيه، لم يرفع حتى عينيه تجاهي. أحسستُ بالاختناق، وكان السبب بأن النافذة مغلقة والتكييف مُقفل. زعمتُ لحظتها بأني أمسكُت بتفصيلٍ ما عن هذا الرجل، وكل ما كان عليّ فعله هو البحث عن سببِ غلق المنافذ المفاجئ هذا. ما الذي يفعله بهذه السريّة، بهذه الساعة؟ قلتُ مباشرة: المكتب قبر، افتح النافذة. فقال وكأنه يكلّم نفسه وعيناه مثبتتان على شاشة الكمبيوتر: يا ليته قبر، على الأقل لا أحد هناك يطرق عليك الباب. ألجمتُ ورحت أحدق به قبل أن يرمقني ويبتسم: اسمح لي يا الغالي، لكني مريض وأحتاج الدفء.

سأحاول أن أختصر ما أعرفه عن جابر. إنه بعمري تقريبًا، ثلاثون عامًا. درس في جامعة الكويت، تخصّص هندسة صناعية. يعمل في هذه الشركة منذ خمس سنواتٍ الآن، وهذه هي المرة الأولى التي أراه فيها. ولكن بالتسليم لطبيعته الانطوائية وعدد الموظفين في الشركة، فليس الأمر بهذه الاستحالة، ولكنه مع ذلك يظل نادرًا. متزوّج ولا أطفال له. سألته مرة إن كان يفضّل اسمًا ما لأناديه بأبي فلان، فقال لي إنه يفضّل جابرًا فحسب. أظن أن الجميع يحبه، ولا أحد يحبه حقًا. يعني، إذا ما تحدثنا عن شعور

الجميع تجاهه، فالجميع يحبه بالفعل. غير أني أجزم بأنه إذا ما سألتَ شخصيًا أيّ موظف بالتحديد عن جابر، فلن يقول لك أنه يحبه حقًا، لأنه في الواقع لا يضمر له ذلك، ولا عكس ذلك، ولا يملك أساسًا شعورًا معينًا اتجاهه.

دخلت مرة على مكتب مسؤولنا بوعبد الله لتذكيره بترقيتي، وأخبرته أن جابرًا من درجتي الرابعة عشرة نفسها، وبالتالي يستحق الترقية كذلك. في الحقيقة، كان تذكيري لبوعبد الله بأن جابرًا أكمل عدد السنوات المناسب للترقية مثلي، هو لدعم مطالبتي بالترقية، وللتأكد من أنهم سيخرجونني من صحبته في المكتب، وسيحصل كلٌّ منا على مكتبٍ يخصّه، بحيث إن كانت القضية تخصني فحسب فسيكون من السهل عليهم أن يتجاهلوها، أما إن كانت القضية تخص موظفان، فالحسبة تختلف. وقد يخطئ المرء ويظنّ أن صحبة جابر تزعجني أو شيئًا من هذا القبيل، ولكن الرجل كما يقولون، وجوده معي وعدمه سواء. لا يتحدّث بالهاتف، ولا يأكل غداءً بروائحَ كريهة، ولا يدعو أصدقاءه لشرب القهوة، ولا حتى يكلمني. ومع ذلك تبقى مسألة أن يملك المرء مكتبًا له وحده أهدأ، وبرستيج. سألني بوعبد الله لحظتها: أي جابر؟ أخبرته: اللي معاي في المكتب. فقال: إيه، ذاك. ولم أجد حتى اليوم وصفًا له أفضل من هذه الأحرف الثلاثة: ذاك.

ثم أخبرني أن وضعي مختلف عن جابر قليلًا. فهو توظف

في شهر مارس، قبل نهاية السنة المالية، وهذا الشهر بالذات، مع أبريل، يطلقون عليهما شهرَيْ الجن، لأن لا ترقيات في هذه الفترة. ولذا، على الموظف الذي وُظّف في شهر مارس أن تُرحّل ترقيته لشهر مايو، أو تُقدّم لشهر فبراير. عليهم أن ينتموا لإحدى هاتين الفئتين، لأن في فترة مارس وأبريل، لا انتماء هناك.

لم تهمني تلك القضية كثيرًا، وأخبرت جابرًا لاحقًا أن بوعبد الله لا يذكره جيدًا، وأن عليه أن يختلق عملًا ما حتى يريه قدراته كونه الشخص المسؤول عن ترقيته. قال جابر: الله يعينه. سألت: على ماذا. قال: على نفسه. لا أدري كيف تحدّث جابر أمامي بهذه الصراحة. أبدأ بالوثوق بي؟ أردت أن ألطف الجو قليلًا وأستغل ثقته المفاجئة هذه، فسألته: كم فتاة في هاتفك؟ فردّ علي: أنا متزوج. أردت أن أخبره أنني أعرف ذلك سلفًا، ولكنني صمت.

أعلم أنه يجب أن أدعم آرائي عن جابر بمواقف أكثر، وأتجنب رأيي الشخصي فيه لأكون عادلًا، وأسلّم حقّ الحكم عليه للسامع، دون تدخل سلطة رأيي الشخصي فيه، غير أن هذا غير ممكن أبدًا، لأن القضية باختصار هي شحّ هذه المواقف، وندرة حدوث موقف معه من الأساس. فليس لي، وليس لغيري من زملائي في العمل، أن يصفه بشكل حق، صادق ودقيق، دون إقحام الرأي الشخصي في المسألة. لأننا في نهاية الأمر، لا ندرك ما هي شخصيته على وجه التحديد -تلك الشخصية المطلقة- ولا

نملك من شيءٍ لنصفه به، إلا عن طريق ما بنيناه نحن أنفسنا من آراءٍ حوله. رغم أنني أستطيع القول بأنني أقرب الموظفين إلى جابر، غير أن هذا في الواقع لا يعني شيئًا على وجه التحديد، لأني في نهاية الأمر، لا أعرف عنه أكثر من البقية. ولا أظن أنني، بالنسبة إليه، مختلف عن البقية كذلك.

اسم عائلة جابر ينتمي لعائلة محايدة إسلاميًا، بعضها من السنة والآخر من الشيعة. لم أعرف لأيٍ منهما كان ينتمي. أردت أن أتأكد من هذه المعلومة، لا لشيء، ولكن لأعرف فقط، وأجدَ شيئًا أقوله للشباب فيما بعد. إلا أن السؤال عن المذهب محرج في الغالب، فنحن شبابٌ حضاريون، أو نبدو كذلك، ولهذا عليّ أن أكون أكثر ذكاءً، ولذا سألته: ها جابر، ما قلت لي، قدساوي والا عرباوي؟ ولكنه أضمر خطتي فأجاب وهو يبتسم: لا أتابع كرة القدم. ثم عاد ليضرب على الكيبورد وهذه المرة وضع سماعات الآيفون في أذنيه.

أما محمد حياتي، فسأخبركم لم نناديه كذلك. كالعادة في اجتماعاتنا الصباحية، يحدث أن يستعير المحاضر موبايل موظف آخر لعرض البريزنتيشن والتحكم به. في العادة، الموظف الذي عليه الدور بالعرض يكون قد وضع موبايله على وضع الطيران، حتى لا يظهر أثناء البرزنتيشن إشعارات خاصة، كما يحرص على ألا يكون هناك أي تطبيق فضائحي على الشاشة الرئيسية. ويحدث أحيانًا أن يستعير أحدهم موبايل زميله في لحظة العرض

في حال طرأ خللٌ تقنيّ على مسألة توصيل هاتفه. بعض الموظفين يتداركون اللحظة ويحوّلون شبكتهم بسرعة على وضعية الطيران قبل أن يعيروه للمحاضر، والبعض الآخر يقول: لحظة. ويعبث قليلًا قبل أن يسلمه. ذات مرة، تورّط ماجد بملفٍ لم يعمل على موبايله، فاستعار موبايل محمد الذي كان يجلس أمامه، وفي أثناء تقديمه للبرزنتيشن، ظهر إشعار من أعلى الشاشة لتطبيق الواتساب من شخصٍ اسمه مزخرف وطويل وتصعب تهجئته، ولكن الرسالة كانت: ها حياتي صحيت؟ ومن يومها، ونحن لا نناديه إلا محمد حياتي.

ثمة قصصٌ كثيرة حدثت على هذا المنوال. ولكن ما يهمني هنا، هو سرد حادثة استعارة موبايل جابر. فذات يوم، أخذ جاسم موبايل جابر، الذي أعطاه إياه مباشرةً من غير حتى أن يلقي نظرةً عليه وعلى آخر تطبيق مفتوح. وصّل المحاضر موبايل جابر ولم يكن على وضعية الطيران، والإنترنت يعمل. هذا يعني شيئًا واحدًا: رسالةٌ ما ستصل حتمًا. فضيحةٌ على وشك الوقوع. أكاد أقسم أن الجميع كان يصبّ تركيزه على أعلى الشاشة في انتظار إشعارٍ ما، شيءٍ خاص، قصة ستفضح لهم شخصية جابر هذا، ولم يستمعوا لكلمةٍ واحدة مما قيل في البريزنتيشن. حتى المحاضر نفسه، جاسم، كان يتلفت لشاشة العرض من وقتٍ لآخر وكأنه هو الآخر بانتظار شيءٍ مثير أن يحدث. ولكن كل ما حصلنا عليه كان رسالة نصية من شركة الاتصالات، تروّج

بعض النغمات الدينية بمئة فلس فقط. نصف ساعة كاملة ولا شيء إلا نغمة دينية، ولعنة! ثم غادرنا جميعنا الاجتماع محبطين.

ذات صباح، تأخّر عن العملِ لأول مرة منذ عرفته في الشركة. مرت إلى الآن ساعتان، ولم يأت. أردت الاتصال به، ولكني تغاضيت عن الأمر عندما أدركت أن الاتصال قد يزعجه. لم يسأل عنه أحد. استفسرت من بقية الزملاء إذ قد يكونون على درايةٍ بشيءٍ لا أعرفه، ولكن وكما هو متوقع، لا أحد يعرف عنه شيئًا. لم أرغب في سؤال سكرتيرة فريقنا عن غيابه، إذ لا أريد، بطبيعة الحال أن أُنبّههم إلى غيابه، فصمت. عند الساعة الواحدة ظهرًا، لم أعد أتحمّل الحدث، فتوجّهت مباشرةً للسكرتيرة وسألتها. قالت: أخذ إجازة لأنه مطالب بأخذ إجازات حتى ينهي رصيده. ثم انصرفتُ إلى المكتب وأنا أتساءل: من يُرغم على أخذ إجازته؟

عدت إلى المكتب وأنا غير معتاد على خلوّه منه. لم يكن على طاولته شيءٌ مثيرٌ للاهتمام عدا أمرًا واحدًا. كان يحتفظ بالكثير من أقلام الرصاص، وكلما اضطر أن يوقع على شيءٍ ما يسألني: ممكن قلم حبر؟ سألته مرة لم لا يحب أقلام الحبر، فأخبرني بأنها لا تمسح له ما كتب، وأضاف: تستطيع بالتأكيد أن تشطب، إلا أن الجميع سيكون على دراية بأنك حاولت أن تخفي شيئًا.

هوسي بجابر هذا لم يأتِ من باب أن لجابر غموضًا ما من الممتع كشفه، أو أنه شخصية استثنائية، ولكن القضية هي

أنه لا يملك أي غموضٍ واضح. كل ما لا أعرفه عنه، هو ما لا أعرفه عن أيّ زميلٍ آخر هنا بالعمل. إذًا لم جابر؟ لا أدري حقيقة. فهذا الإنسان العادي، والذي لا يدعي الغموض، ولا يبدو أن به أي أمارة مثيرة للكشف، لا يستحق كل الطاقة التي أصبها في ملاحظته. قد تكون القضية هي أنني أشعر بالملل فعلًا في المكتب. إنستقرام ينتهي. تويتر ينتهي. سنابجات واتساب فيسبوك وكل زفت ينتهي. مرة سألت حمد اللي يقرا -نسميه حمد اللي يقرا لأنه يقرأ دائمًا في أوقات فراغه- وأخبرته أن ينصحني بكاتب لأقرأه وأزجي الوقت، فأعطاني كتابًا لا أذكر عنوانه، ولم أستطع الوصول للصفحة العاشرة حتى. أرجعت الكتاب لحمد ورحت أتحدّث معه عن الأمور الاعتيادية، حتى تطرقنا لجابر، فقلت له شعوري تجاهه. فقال حمد اللي يقرا: ركّز، من تقول إنهم يقبعون بالهامش، هم في الواقع ليسوا كذلك. فلا وجود للهامش. فالهامش بأهمية المتن، لأنه لولا الهامش لما كان المتنُ متنًا، بل شيئًا أقل أهميّة. مثل فواصل صفائح البورسلان، لا تُرى، ولكنها موجودة هناك لتجعلك ترى البورسلان نفسه، لتكمل المشهد، وتؤطره.

كنت أستمع لهذيانه الذي استمر رغم شرودي الواضح ووجهي الذي لم يتغير مذ بدأ بالحديث، ثم سألته عندما ختم حديثه: يعني جابرْ فاصل بورسلان؟ ثم ضحكت وأضفت بنبرةٍ جدّية بأني أردت دائمًا أن أصادقه، أي جابر، لا اهتمامًا بشخصه،

ولكن لتمضية ساعات العمل بشكلٍ أسرع. ولكن من الواضح أنه لم يكن يرغب بذلك. فاحترمت رغبته، إذ أن لا أحد أعرفه قد ظفر بصداقته. فلا مشكلة لدي إن كانت العلة فيه هو، لا أنا.

في ذلك الأسبوع، كان الجميع يتأهّب للمؤتمر الإقليمي السنوي لشركتنا في الشرق الأوسط والذي سيُعقد في يوم الثلاثاء القادم. يوم الفرص، كما يسميه مديرنا بوعبد الله. كان سيصبح يومًا رائعًا للشركة، لولا النبأ الذي ذاع في ذاك اليوم عن موت جابر.

٢

في نفس النهار الذي تلقيت فيه خبر ترقيتي، تلقيتُ كذلك خبر وفاة جابر؛ لقد تحطمت جمجمته إثر حادث سيارةٍ مريع، هذا ما قالوه.

حدث ذلك البارحة فجرًا. أبدى الجميع أسفه عند سماع الخبر، بأقلّ ما يتطلب الأمر من انفعال. أما أنا شخصيًا فلا أعرف ما الذي كان عليّ أن أشعر به، وبدلًا من التفكير بذلك، وجدتني أقلّب في رأسي الأسباب التي قد تجعل جابر يقود سيارته في الثالثة فجرًا.

كان دفنه سيقام خلال ساعتين، بعد صلاة الظهر. فكرنا جميعنا بالذهاب لتشييعه في المقبرة، كفكرة تلقائيّة وروتينيّة.

كان مبنى الشركة يومها يعجُّ بالزوار وممثلي الشركات الأخرى وموظفي الفروع الأخرى الموجودة في دول مجلس التعاون. كان أحد المديرين التنفيذيين للشركة حاضرًا اليوم ليلقي كلمة خلال المؤتمر السنوي، يدعى جيمس. ضخم، أسمر البشرة، وله فتحتا أنف بحجم محجري عينيه تقريبًا. عندما سمع بخبر وفاة جابر، طلب مقابلة فريقنا بأكمله على الفور. اجتمعنا بغرفة الاجتماعات الصغيرة القابعة في آخر المبنى. دخلنا الحجرة ووجدنا جيمس بصحبة مسؤولنا أبي عبد الله. ما إن جلسنا حتى قال لنا بصوتٍ رزين، وبإنجليزيّة غليظة: إن واجبنا يحتم علينا جميعًا أن نذهب لتشييع جابر، وأي قرار آخر سيكون خطأً. ولكن الأكثر خطأً أن نفوت اجتماعنا اليوم في المؤتمر السنوي، وندع الفرص تفلت من أيدينا. جابر قد مات فعلًا، غير أن البقاء للحي، والحياة تستمر. وكتقديرٍ له، سنجلس جميعنا اليوم، بعد الظهر، في استراحة الغداء، هنا في هذه الغرفة، لنعزي أنفسنا، ونذكر جابر ومآثره، ولنحزن عليه بشكل يليق به. وسنذهب جميعنا غدًا للعزاء في منزله.

لم يحتجّ أحد. كانوا يُصغون وهم مطرقون. بمقدرة هذه الأوجه أن تخدع أي شخصٍ لا يعرفهم، ويقرّ بأنهم لا شكّ يشعرون بأسفٍ واضطهادٍ سلطوي إثر هذا الأمر. ولكني أعرفهم جيدًا، وأعرف ما تضمر هذه القسمات، وأقسم أنني لو سألت كلًّا منهم على حدة عن رأيه، سيبوح لي بعدم رغبته بالمضي إلى المقبرة، والوقوف تحت حرارة شمس يوليو القائظة.

وها هو مبرّر ينزل عليهم من السماء ويعيق مقصدهم. وهكذا سلّم الجميع بالأمرَ، وكان رأينا من رأي المدير التنفيذي.

غادر الجميع غرفة الاجتماعات ممتعضًا، صامتًا، مستندين على أن امتعاضهم هذا سيحفظ ما تبقى لهم من كرامة، حتى وإن لم يغيّر ذلك من القرارِ شيئًا. أما أنا فصمتُّ ولم أبيّن شيئًا. حاولت أن أشغل نفسي برؤية أصدقاءٍ قدامى، أصدقاء جدد، وخوض جدول المؤتمر الطويل بذهنٍ شاردٍ تقريبًا. لم أكن أشعر بالحزن تحديدًا، ولكنني اكتأبت لسببٍ لا أعرفه حقًا. إنه الموت، ربما، إمكانيّة حدوثه لأيٍ منا، لا موت جابر بعينه. كان الأمر يشبه قراءة حيادية لاسم غريبٍ متوفى في الجريدة، لا تربطك به أي علاقة، ولكنك تكتئب لسبب ما عندما تتهجى اسمه بالكامل، ببطء، وتنتقل لاسم والده، ثم جده، وعائلته، تتخيّل طول سنواته، وما تخلّلها، وأيّ بيتٍ كان يقطن فيه عندما كان حيًا.

أما بقية أفراد فريقنا فقد كان مجتهدًا أثناء المؤتمر، ومبتسمًا في وجه الأجنبي في سبيل كسب رضاه، وكأن شيئًا لم يكن. والبعض كان شاردًا، وأنا متيقّن أن ذلك لم يأتِ جراء خبر وفاة زميلهم، ولكنهم ظنوا أن الشرود، في هذا اليوم تحديدًا، مسموح، لوجود مبرّرٍ مقنع لا يمكن أن يلام عليه أي أحد.

في استراحة الغداء، وكما اتفقنا مسبقًا مع الرئيس التنفيذي جيمس، دخل فريقنا كله غرفة الاجتماعات. كان الحضور عشرة

أفراد، ما يعني غياب موظفين، وعلمت فيما بعد أنهم لم يتركوا ممثلي الشركات الأجنبية وحدهم، وبرروا ذلك فيما بعد بأنها الأصول، والواجب تجاه الضيف.

بدأنا نسلّم على بعضنا بعض، ونعزي فقدنا لزميلٍ قد أحبه الجميع. جلسنا جميعًا، وبدأنا بالحديث عن جابر. وكان من السائد في مثل هذه المواقف أن نسترسل في الحديث عن شخصِ المتوفى بكل خير، ونسترجع كل مواقفه الباهرة في حياته، ونتغاضى عن المشين منها. لم يكن أمرًا عجيبًا أن ينتهي الحديث عن جابر في أقل من خمس دقائق. في الواقع، لم أتوقع أن الكلام سيستمر لهذا الحد. فخمس دقائق أطول بكثير حتى من أن تذكر كل ما تعرفه عن جابر، ولو كان ذلك لا يتضمن صفاته الصالحة فحسب، بل الطالحة كذلك.

حلّ السكوت، وكان الجميع ينظر إلى الأرض. شعرت بأن بوعبد الله أراد أن يملأ الصمت بعبارةٍ ما، قال: لم تأتِ شكوى واحدة عنه، لم يتأخر يومًا، لم يطالب بشيء، كان هادئًا لدرجة أنني أنساه أحيانًا. ولم أكن متأكدًا إذا ما قاله كان يعتبر مدحًا أم ذمًا في السياق العام. نظر لي نظرة مختلسة والتفت لأنه يعلم أنني الوحيد الذي يدري هنا أن جابرًا بالنسبة له لم يكن أكثر من: ذاك.

أكاد أجزم أن الجميع كان يترقّب شهادتي التي سأدلي بها في جابر، بصفتي زميلهُ وأكثر من عاشره بيننا، غير أنني ما زلت لا أفهم لم لا يدركون بعد بأني أجهله بقدر جهلهم به. وبالتالي زاول

السكوت طغيانه على الجو العام، غير أنه بإمكاننا، على كل حال، أن نبرر صمتنا الطويل هذا بشدة تأثرنا من الموقف. غير أن الأمر الذي لم يملك مبررًا على الإطلاق، هو استخدام البعض لموبايله، خفيةً، من تحت الطاولة.

في اليوم التالي، ذهبنا، أنا وسبعة من زملاء العمل للعزاء. لم يكن مزدحمًا. كان عاديًا، هادئًا، وكئيبًا بطبيعة الحال. يشبه جابرًا إلى حد كبير. لم نكن نعرف أحدًا من عائلته أو أقاربه. ولكن من استلم العزاء كان شيخًا يبدو أنه والده. وكهلًا آخرَ، لا نعرف صلة قرابته بجابر. بدا لي من الغريب أن يكون لجابر أقارب،

لا أدري كيف أعلّل هذا الشعور منطقيًا، ولكنه بدا لي دومًا كشيءٍ في حالة عدم اتصالٍ عميقة. ركبني شعورٌ بالتطفّل وأنا جالسٌ داخل بيتٍ عاش فيه جابر من قبل. بدت هذه الفكرة غير مقبولة: دخول المنازل فعلٌ حميمي، دخيل، غير مسموح؛ أن ترى زخرفة السجادة، ألوان ورق الجدران، نوع كاسات المياه، رائحة المنزل الخاصة جدًا، شركة علبة المناديل الورقية الذي يكشف لك من أين تم التبضّع لأغراض المنزل، ماركة الصابون المستخدم بالحمام؛ لِمَ ديتول بالذات وليس دوف أو لوكس؟

ولج رجلٌ للديوانية وسلّم على والد جابر والكهل الآخر، وما إن لمح جاسم حتى اقترب وسلّم علينا جميعًا. لعلّه معرفةٌ قديمة إذ بدت التحيات بينهما حارة أكثر من اللازم. عرفنا فيما بعد، مما أسرّ هذا الرجلُ لجاسم، أن لجابر بنتًا صغيرة اسمها أمل، وعمرها حوالي ست سنوات. أما أمها فطلقها جابر بعد شهرين من زواجهما، وتزوج بعدها مباشرةً. وأضاف: لم يرَ بنته يومًا.

كان الرجل يدعى نواف، ويعتبر خال أمل، شقيق طليقة جابر، وفي الوقت نفسه زميل جاسم في أيام الجامعة. أحسست بأن رأسي توقّف عن التفكير. لم أكن مستعدًا لتلقي هذا الكم من المعلومات التي انهالت عليّ في لحظةٍ واحدة، وأنا الذي اعتدت على الشّح من جابر. ولكن أول ما فكّرت به هو الاستغراب من نواف هذا، الذي تحدّث عن المتوفى بهذه الطريقة وهو يجلسُ في عزائه.

٣

وصلت للعمل في اليوم التالي. جلست في مكتبي وعيناي مثبتتان على المكتب الآخر الذي لم أعتد عليه فارغًا. لم تختلف ضجة المكان على كل حال. لم أرغب بالتفكير كثيرًا بكل الذي حدث البارحة ولذا باشرتُ العمل، ولم أكبح همّتي حتى راحة الغداء، وتيقنت أنني لم أنته بعد من نصف كمية العمل المتوجبة علي، والتي كنت أعتاد أن أنهيها بأقل من ثلاث ساعات.

رغم أن النافذة مفتوحة، والتكييف كذلك، إلا أنني شعرت بأن كليهما كان مغلقًا، وكان الجو خانقًا، فغادرت المكتب لأجتمع بالبقية. قال ماجد بأن صديقًا له في العلاقات العامة أخبره أن موظفًا جديدًا سيأتي القسم، وخمّن محمد حياتي بأنه لا بدّ بديل جابر. لم يشكّل الأمر فرقًا كبيرًا بالنسبة لي لأنني ترقّيتُ على كل حال وسأحصل على مكتبي الجديد في الأسبوع القادم.

أتى القادم الجديد في الغد. ما إن دخل المكتب حتى قدّم نفسه إلي وراح يتحدّث ويسأل عن طبيعة العمل لأكثر من ساعة تقريبًا. بدا لي رجلًا مخيفًا، متحمّسًا ومليئًا بالأحلام. استمر بثرثرته عن المستقبل ومسؤوليتنا حتى لجمت حديثه وأخبرته بأن ثمة عملًا يجب أن أنهيه. في الساعة الواحدة بعد الظهر، أتى بعض العمال ليحملوا مكتب جابر سابقًا إلى الخارج، ليجيئوا بمكتبٍ جديدٍ بلاستيكيّ من آيكيا. دخل الموظف الجديد وهو يعطيهم التعليمات، ثم رآني وأنا أتأمل المشهد باستفهام، فقال لي

مبتسمًا: لا أحب مكاتب الخشب الداثرة، هذا أفضل، خفيف وسهل التركيب. ثم أضاف بابتسامته المريبة: ومميز!

فكرت في تلك اللحظة، بشكلٍ لا أفهمه، بالفتاة التي اسمها أمل. كنتُ غارقًا في أفكاري بينما كان الآخرون في الخلفية يركّبون المكتب الجديد ويضربون بالمطرقة والمسامير، وذلك حتى اقتلعني الموظّف الجديد من شرودي وسأل: أهذا لك؟

وكان ممسكًا بقلم رصاصٍ مكسورٌ رأسه.

مأساة الدكتور أسامة الراس

كفّاهُ ترتجفان، والموعدُ يقترب.

«استريح». قال الشرطيُّ الأول «المحقق قادم. راح يصلي».

جلس أسامة على الكنبة الزرقاء وهو يتمتمُ شيئًا من المفترض أن يكون «تسلم» أو «مشكور» ولكنها لم تكن أيًا منهما أو ربما مزيجًا لفظيًّا بينهما. لا تحتوي الغرفة على مكيّف هواء، وكان الصيفُ قد بدأ. لم يكن متأكدًا إن كانت الكنبة التي يجلس عليها زرقاء في الأساس أم أن البهتان قد حوّل لونها من الأخضر للأزرق. يجلسُ الشرطي الأول على يسار الدكتور أسامة، على كنبةٍ مشابهة ولكنها تتسع لشخصين، ومن ورائه نافذة عملاقة مُشرّعة على مسجدٍ وأشجار صفصافٍ وشارعٍ خالٍ تمرّ فيه سيارةٌ أو اثنتان من وقتٍ لآخر. أما الشرطي الثاني فقد كان يقف في آخر الغرفة، مولّيًا ظهره لكليهما، يسخّن غلاية الماء ويضبّط دلّة الشاي.

ما زالت يدا الدكتور أسامة ترتجفان، يستطيع أن يرى ذلك بوضوح من الأوراق التي يحملها بيده وهي تهتزّ. نفخ من صدره وعدّل من جلسته. من غير اللائق بالنسبة للدكتور أسامة الراس أن يعاينه أي شخص في هذه الحالة. اهدأ يا أسامة. ستقابل المحقّق الآن. ستردُّ له الإهانة. كيف له أن يفعل ما فعل معك؟

كان الشرطي الأول يتفحّص الدكتور بصمت؛ بدلةٌ رسميةٌ زرقاء، شعرٌ أبيض مسرّح للوراء، ربطة عنق رمادية، لمعة القلم في الجيب الصدري من قميصه الأبيض المكويّ، حذاؤه الأسود البراق الشبيه بسيارته الجمس عندما يغسلها. لا يتذكر إن كان قد رأى من قبل كويتيًا في مخفر شرطة يرتدي بدلةً رسمية. ولكن أشياء كهذه تحدث، قال لنفسه.

لا يستطيع الدكتور أسامة تأكيد ما إذا كان الشرطي يستطيع ملاحظة رجفته، ولكنه أحسَّ بأنه مراقب. لا بدّ أن المحقّق قال شيئًا عنه بعد آخر زيارة. لا شكّ بأنه لفّق كلامًا أيضًا. ولا ريب في أن الشرطي الآن إنما ينظر لرجفته ليؤكد ما سمعه، وبالتالي يتلذذ بهذه الفضيحة. ورغم أن سيماء وجه الشرطي متّشحة بالظلال بسبب نور العصرية البرتقالي الهائل من خلفه، إلا أن بمقدرة الدكتور أسامة أن يرى وجهه الأسمر الهزيل، عينيه الدائريتين، أنفه الشبيه بالمنقار، وشفتيه الداكنتين والضاغطتين على سيجارةٍ اشتعلت لتوها.

اقترب منهما الشرطي الثاني باستكانتي شاي. اعتذر الدكتور

أسامة فأعطى واحدة للشرطي الأول وأخذ الثانية معه لطاولة المكتب.

شعرَ الدكتور أسامة بخطٍّ العرق يزحفُ على عموده الفقري وهو يتأمل البخار المتصاعد من استكانة الشرطي، وأحس برجفة قطرتين أو ثلاث من العرق على جبهته. هل كان عليه أن يرتدي بذلته في هذا اليوم تحديدًا؟ نعم، قال لنفسه. عليهم أن يتذكروا من أنا في نهاية الأمر. عليهم أن يتذكروا مع من يتحدثون. قال «الجو حار. ألا تملكون تكييفًا؟».

«لا. بالعكس، الجو حلو». قال الشرطيّ الأول وهو يرتشفُ الشاي الساخن «وكأننا في شقةٍ في سوريا». وراح يضحك بعينين بدتا للحظة أكثر يفاعةً من سنّه الأربعيني. لم يضحك أسامة، بل أخذ منديلًا من العلبة التي أمامه، وراح يمسح جبينه المبلل.

كان الشرطي الثاني يلتهمُ السندويتش التي أخرجها لتوه من الكيس، ففاحت رائحتها الطريّة في فضاء الغرفة. كان ينظرُ لها عندما يقضم، ثم يرفع رأسه ناحيتهما عندما يهضم، ومن وقت لآخر يأخذ رشفة من استكانة الشاي أمامه.

الجلسة ذاتها التي شهدها أسامة البارحة، عندما دخل عليهما لأول مرة وهو يسأل عن كيفية إنشاء ورقة حادث، وقالوا له «عند المحقق». حرارةٌ وشايٌ ونافذةٌ مشرعةٌ وسندويتش لها رائحة نفاذة. لم ينتظر طويلًا، لم يجلس حتى، يتذكّر أنه دخل

مباشرةً على المحقّق الذي كان يجلس وحده في مكتبه. مئة كيلوجرام رابضة على كرسيٍّ دوّار، غترة وعقال ولحية تصل لعظمة الترقوة. «خير؟» قال له وكأن أسامة اقتحم غرفة نومه. «حادث» قال أسامة. «ماذا حدث؟» سأل المحقق.

رفع أسامه حاجبيه استعدادًا لشرح الحادث، متلبسًا وجهًا بريئًا «أنا الدكتور أسامة الراس. عند عودتي من العمل، جامعة الكويت كلية الهندسة، وأنا على خط المطار، كان في سيارة يسار، تتجه نحوي، حاولت أن أتحاشاها، فاضطررت إلى الاصطدام يميني».

ضيّق المحقق عينيه وقال «اصطدمت بالرصيف؟» شعر أسامة لحظتها بأنه خان قصته بهذه الكلمات المقتضبة. «لا، لا، عند عودتي من العمل، الجامعة، وأنا على الشارع، كان في سيارة يسار، تتجه نحوي، حاولت أن أتحاشاها، فاضطررت إلى الاصطدام».

«تفهم عربي؟» أحنى المحقق ظهره للأمام، «شدخلني جامعة ولا سيارة ولا غيره، أقولك داعم رصيف؟».

«كان في سيارة، كنت راجع من الجامعة، ...» صمت أسامة لوهلة قبل أن يقول «اضطريت»، وبقيت تلك اللحظة معلقة.

قطع أفكاره صوت الشرطي الأول وهو يقول «متى تنتهي المدارس؟» ثم أطفأ سيجارته.

«أظن أن الاختبارات في نهاية شهر خمسة». قال الشرطي

الثاني بفمه المملوء بالطعام، ومن غير أن يرفع عينيه عن شاشة الموبايل. «شلون خلف؟».

أجاب الشرطي الأول «يدرس لاختباراته. لكن يقول يبي يسافر مع ربعه. البحرين. أقوله ما تنفعك إلا شهادتك، ادرس، لكن لا يسمع». سكت قليلًا وأضاف «حارق قلبي».

ومرّ وقت استطاع فيه أسامة أن يسمع الشرطي الثاني وهو يمضغ الطعام مع خشخشة الأكياس من أمامه.

رنّ هاتف الدكتور أسامة. نظر إلى الشاشة وكانت ابنته بيبي. قال «هلا بيبي. نعم بابا مشغول قليلًا. لا، الفستان الأسود أحلى. شانيل كان، لا؟ أذكر الأبيض. حبيبتي الأسود. أنا مشغول الآن. باي».

عمّ الهدوء في الغرفة قبل أن يترامى لهم صوت الإمام في المسجد المجاور وهو يقرأ آيةً ما. كان الشرطي الأول يبدو له الآن ظلًّ، يستمع لميكروفون المئذنة وكأنه يسترجع ذكرى قديمة مبهمة. أمسك علبة السجائر والولاعة من الطاولة أمامه، أخرج سيجارة ومدّها لأسامة وقال «تدخن؟». وأجاب «لا أدخّن».

ابتسم، وأرجع يده وهو يضبط السيجارة بين شفتيه الداكنتين ويولعها.

«متى يصل المحقق؟» سأل أسامة.

«سيصل، سيصل». قال الشرطي «لا أدري متى، ولكنه سيصل». ونفث دخانًا من منخريه.

فكّر أسامة إن كانوا لا يزالون يتحدّثون عن المحقق. وراح يحدّق بالأرض. كاشي مغطى بغبار وطبعات نعل وكسر في الفواصل. ولكن ما باله يتأمل الأرض؟ رفع رأسه للأمام، وراح يحدّق في السقف. كان الفعل يتطلب بعض الجهد ليثبت على هذه الهيئة، ولذا لم يتطلب الأمر منه بضع ثوانٍ حتى أخفض رأسه مجدّدًا. من أين له الطاقة؟ يخسي! المرء بحاجة للكثير من الطاقة حتى يبقي رأسه مرفوعًا. راح ينظر لكاشي الأرضيّة مجدّدًا، فلاحظ صرصارًا يمشي ببطء ملتصقًا بالحائط: إيه يا أسامة، هذه نهايتك. لا تستطيع أن تفكّر إلا ورأسك يحدّق إلى الأسفل، حيث طبعات النعل والغبار والصراصير. إنها الإهانة.

«وسّع صدرك. أوراقك ستكتمل». قال الشرطي الأول وهو يشعل سيجارة أخرى.

«بعد كل هذا العمر، يهينني المحقّق! أخبرهُ أنا الدكتور أسامه الراس، ولا يعتذر!». ترامى لأسامة صوت شخير الشرطي الثاني. كان نائمًا متوسطًا ذراعيه على المكتب، فاتحًا فاهه.

أما الشرطيّ الأول فقد ظلّ محدّقًا بأسامة، وقال «والنعم فيك يا أسامة الراس، اسمح لي، الدكتور أسامة الراس. أنا سمعت قصتك. ما فيها عيب ياخوك. عادي. الواحد يسرح».

«لكن» قال أسامة رافعًا صوته وهو يرتجف «كانت هناك سيارة! أقسم! لن أدخل بالرصيف هكذا!».

رنّ هاتف الشرطيّ الثاني، وعند الرنّة الثالثة استيقظ، نظر مكشّرًا في شاشة الموبايل وهو يمسح اللعاب من فمه، أجاب على المكالمة وراح يتمتم «ألو. ها؟ بالداوم. أبوي؟ وين مشاري؟ يأخذه للطبيب. أخلص الدوام الساعة عشر. خلاص أطلع وأوديه أنا». وأغلق الهاتف.

«اسمح لي» قال الشرطي الأول «بس كم عمرك دكتور أسامة؟».

«ثلاثة وأربعين».

«العمر كله» قالها بنبرة من لم ينته من الكلام، وبالفعل لم يتطلّب منه الأمر أكثر من خمس ثوانٍ حتى يتابع «بعضنا يا دكتور أسامة، اصطدمنا بالرصيف قبل لا نولد. تعوّذ من إبليس يا رجل». ثم أمال رأسه ناحية اليمين ونظر وراء كتف أسامة باتجاه الباب وقال «المحقق وصل. بالتوفيق».

وقف أسامة وهو ينظر للشرطي بنظرةٍ تقول: هذا مجنونٌ آخر.

ما إن خرج أسامة من الحجرة حتى قال الشرطي الثاني وهو ينظر في الهاتف: صاحبي يقول الاختبارات تنتهي عشرة من شهر خمسة.

فاستمع الشرطي الأول بإنصاتٍ وقال «بسمح لخلف يسافر».

وراح أسامة للمحقق، متحمسًا ويكاد بنطاله الضيّق أن ينقطع نظرًا لطول خطواته المفاجئ، وما أن دخل غرفة المحقق حتى اكتشف أنه لم يكن المحقق يوم أمس ذاته، بل محقّقًا آخر، أخذ ورقته ووقعها، ولم ينظر في وجه الدكتور حتى.

لقد قتل نفسه وهرب

أظنني أفهمك جيدًا. إنك تضع على طاولتي كتابَ حياتِكَ وأنت تتساءل: ما هذه الرواية؟ أهي روايتك أصلًا، أم أن في الأمر خدعةً ما؟ أحدهم سرق قدركَ وأنت نائمٌ ربما، أو سُكب ماءٌ بالخطأ على صفحاتك، فتلخبطت حروف حكايتك، وتبدّدت الشخصية؟ تقول أن هذا الكتاب الذي أمامي كان حكايتك طوال الواحد والثلاثين سنة الماضية، ولكنك ببساطة لم تعد تشعر بذلك. لم تعد تميّزها. لقد أصابك الإدراك بأن قصة حياتك لم تعد منطقية. لقد طُردت في أوج الحبكةِ رغم التزامك بسير الأحداث. تبدّلت الثيمة. لا شيء يبدو مألوفًا. حتى أن دور البطولة سُلب منك، وأعطيَ لرجلٍ آخر، لا تعرفه، ولكنه يشبهك قليلًا، ولا تراه يستحق اهتمام القارئ.

أعلم أنك على عجلةٍ من أمرك، وأن الشرطة لا بدّ تبحث عنك في الخارج. أكاد أسمع صافرات الدوريات من هنا! أقتلتَ

نفسك فعلًا؟ يا للهول. أنت تعلم أن أمورًا كهذه ضد القانون. كيف تجرؤ على ذلك؟ حسنًا، حسنًا. لا بأس. افتح ذراعيكَ. تنفّس بعمق واشرب قليلًا من كوب الماء أمامك. يحدثُ هذا على الدوام. يأتي الكثيرون لي ويشكون أمورًا مشابهة. ذاتًا ضائعة، مستقبلًا مسلوب، أقدارًا ملخبطة. إن كان في الأمر بعض العزاء، فلستَ وحدك من يعاني من ذلك. الجميع يفقدُ زمام الأمور في لحظةٍ ما، وتبدأ تتحول رواية حياتهم لشيءٍ آخرَ تمامًا، لكتابٍ لا يعرفونه ولا يكادون يميزون بطله. اشرب الماء، حلو حلو. لا تشربه دفعة واحدة. لا تتنفّس وأنت تشرب. والآن تنفّس. أيبدو ما أقوله معقدًا؟

حسنًا، ركّز معي. لقد قرأتُ كتابَ حياتكَ وسمعتك جيدًا. أدركتُ نمط تفكيرك، ولكن طريقة تجاوز هذه الغرابة التي أنت فيها تتطلّب منك إعادةَ قراءة فصول حياتك السالفة، والبحث عن بذور المستقبل المُهملة، والتي قادتك، بشكلٍ خفيّ، إلى هذه الحبكة.

والآن، لنفتح الفصلَ الأول. إنها طفولتك. بيتٌ كبير. إخوةٌ وأخوات. سبعة، أنت أصغرهم. مات أحدهم عند ولادتك. كان أخًا، تسمعُ قصصًا عنه ولا تذكر حتى اسمه. أبٌ غير حاضر، إما في الخُبَر عند زوجته الأخرى أو في البر عند غنمه، وأمٌ تغسلُ وتطبخ وتصرخُ على الدوام، وأبناءٌ مهمَشون. عادي. كل شيء يبدو لي طبيعيًا. مدرسةٌ حكوميةٌ وطابور الصباح تحت لسعة

الشّمس. طبقة من الغبار على طاولات الفصل المتباينة، ودفاتر مفتوحة على واجبات لم تُحل. مدرس بكرشٍ ضخم يضربك ويقول: لو جحش كان فهم. شجارٌ وتجمّعٌ للصبيةِ وقمصانٌ بلا أزرارٍ وطعمُ دماءٍ. كل شيء يبدو طبيعيًا. إنها طفولة مثالية إن أردت رأيي.

طيّب، حتى نختصر ولا نضيع الوقت في معمعة نمطية طفولتكَ - السموحة، لا تؤاخذني - ولكن لنبحث عن السطور المخططة. أنتَ تعلم أن ذاكرتنا لا تحتفظ إلا بالسطور التي نضع تحتها خطًّا، صح؟ أوكيه، لنبحث عن الخطوط، ولنرَ ما الذي تحتفظ به ذكرياتك.

هممم. حسنًا. أنت تضع خطًا تحت هذا السطر، كسرت مزهرية الصالة وأنت تلعب بالكرة مع إخوتك، وكان الجزاء من أمك أن تُضرب وحدك كونك لم تستطع الهرب مثلهم، ومن قراءتي للحادثة، لا يبدو لي أنها تحمل أي معنى. حادثٌ سخيف وضربٌ بالنعال وبكاءُ مظلومٍ طوال اللّيل. عادي. لننتقل للتالي. هذا خطٌّ تحت حادثة ضربِ أخيك لك عندما لعبت مع بنات الجيران، وتشعر أن لذلك علاقة باستعسارك الجنسي. ولكن لا. عادي. أنت رجلٌ تحب الجنس فحسب، مثل كل الرجال. لا تحاول أن تضفي أهمية على صفاتك العادية، اتفقنا؟

على العموم، يبدو لي أنك تتذكر أقلّ الأشياء أهميّة. يعني، أنت لا تضع خطًا تحت هذا السطر، عندما أُخذ دورك مرات

عدّة وأنت تقف في طابور المقصف في المدرسة، ثم انتهت الفسحة وأنت ما زلت تحاول أن تشتري، جائعٌ ومنهك. ولاحقًا، على الغداء في المنزل، قمت ببعثرة أطباق الطعام وظننت أنك فعلًا طفل، كما قالت أمك وقتها، بهيمةٌ لا تفهم، ولكن، إن أردتَ رأيي، فتلك أول أعراض انتقامك من الآخرين، من النظام.

انظر. إنك لا تضع خطًا تحت هذا السطر كذلك. عندما كان عمرك سبع سنوات وضربتك أمك بسبب تبولك على أرضيّة حمامها. لقد قمعت هذه الذكرى عمدًا لأنها حادثة مخجلة. ثم تتساءل لم تجد اللذة والراحة في توسيخ مقاعد الحمامات العموميّة؟ عزيزي، إنك رجلٌ انتقاميّ، وهذا الفعل ليس إلا انتقامًا على تلك الضربة، تُنجِّس الحمامات عمدًا وكأن كل حمامات العالم هي حمامُ أمك.

لنقلب الصفحات وننتقل لمراهقتك. اسم فاطمة يتردد كثيرًا في هذا الفصل، أكنت تحبها؟ آه، يبدو ذلك. هنا أصبح سردك ذا نبرةٍ كئيبة، كنت تتوقع أنها ستتحاشاك، وفعلَت. عمومًا لا تلمها. يبدو من وصفك لشعرها الذهبيّ المصبوغ، رموشها الطويلة، ضربات كعبها العالي، أنها فتاةٌ صعبة المنال. أما أنت فأنفك المدبّب، صلعك في وسط الرأس، صف أسنانك المصفر، كلها أشياء لا يمكن أن تغري أحدًا بقول «أحبك إلى الأبد» كما أخبرتها. لا؟ لم يكن هذا ما قلته؟ أوه، «أحبك حقًا» نعم، هذا إذًا ما قلته. وما الفرق؟ على كلٍ، وكأننا نعنيها حتمًا عندما

نقول «أحبك إلى الأبد»! فتخيّلُ مدة الأبد لوحدها تصيبُ المرءَ بالدُّوار، فكيف بحبٍ إلى الأبد؟ نعم، أفهم أنك نادم على قول تلك العبارة. وتحديدًا، أنت لا تندم على كلمة «أحبك» ولكنك تندم على «أحبك حقًا». ما هذه الـ «حقًا»؟ ترى أنها كلمة زائدة، تافهة، لا تؤكد إلا ضعفك. «أحبك» لوحدها كانت تكفي، بل وتفيض. «حقًا» كانت سوء كتابة.

آه، إن صافرات الشرطة تقترب! هل يعلم أحدٌ أنك هنا؟ أرجو أنك لم تترك أثرًا يجذب الحكومة خلفك. فأنت تعرف، هذا المكان غير قانوني، تمامًا كوضعك أنت؛ منتحرٌ هائمٌ في الشوارع! عمومًا، لنعد لعملنا. هذا الكتاب مليءٌ بالكلمات الزائدة، الجمل الزائدة، الفقرات المطوّلة؛ هذه هي حياتك إذًا، مجموعة من الكلمات والجمل والفقرات الزائدة، والتي من الممكن دائمًا الاستغناء عنها. أوه نعم، أنت على حق، قد تكون أشياء زائدة، ولكن تجاورها يشكل حياةً بأكملها. بالتأكيد أنت على حق. أحترم فيك قناعتك.

على كلٍ، لنتابع. سردك لم يكن مفهومًا هنا. أكنتَ تهذي؟ ممّ؟ أوه، كحول، مخدرات، اللي هو. بالتأكيد. هروب كلاسيكي من حبٍ فاشل. يتوضّح لي أنك بدأت تمارس بعدها البغي، وكنت تضرب النساء أثناء ذلك. تدفع أكثر ليسمحن لك برفسةٍ وصفعة. يبدو لي أن هذه العادة قد تبلورت سريعًا في هذه الفترة، إنك -وعلى المنوال ذاته- تنتقم من كل نساء العالم وكأن كل امرأة فاطمة.

تزوّجت، ثم التحقت في الشرطة. أهاه! خطوة كلاسيكية أخرى. ألم تلاحظ أن حياتك بأكملها تدور حول الفكرة ذاتها؟ الانتقام! يا لهذا الملل. كتابٌ بأكمله حول شخصية خطيّة. ورقيّة. غير حقيقيّة. تكاد تفوح منك رائحة الكتب يا رجل!

سأتجاوز هذه الصفحات بعد إذنك، فأنت تعلم، غيرك ينتظر في الخارج. همممـ. يبدو أنك بدأت لا تشعر بالفخر إثر الانتصاب الذي يصيبك كلما رأيت امرأةً تبكي، تطلب النجدة. أو عندما تعاشر زوجتك وتتمنى لو تستطيع أن تشاركها خيالك، ولكنك تكبح نفسك في آخر لحظة، وتشعر بالعار والوهن جراء كل ذلك. أرى أنك قد توصلت لبغض الذات، كره الذات. وتشعر بأنك تريد أن تتوقف عن قراءة هذه الحياة، أن تضع فاصلًا كرتونيًا أو منديلًا وتغلق دفّتي الكتاب لترتاح قليلًا قبل المتابعة من جديد. ثم تتذكّر أن الحياة لا تعمل كذلك؛ إنها قراءة متواصلة لحكايتك دفعةً واحدة. حتى لحظات التفكير، مكتوبة. الرتابة والنوم والعار كله، مكتوب، ومُوثّق!

تشمئز من التعب وتولول «لحّوووول!» ثم تتذكر بأن كتاب حياتك من المفترض أن يكون تحفة أدبية خالصة، عملًا ديستفوسكيًا أو بالزاكيًا، ولا يحتوي على كلمات منحطة كهذه. ولكن لم كل هذه الرِّفعة إن لم تكن تشبهك؟ أنت تفضل أن يكون كتاب حياتك حقيقيًا. الجماليات لا تكمن في الأرستقراطية اللغوية فحسب، بل هي معايير متقلّبة، تستطيع أن تجدها في منظر

قطّةٍ تلدُ بين أكياس القمامة. قُل «لحوول» و«زفت» و«خرا». اشعر بسخونة هذه الكلمات. إنه كتابك يا رجل، عبّر ولا تسمح لهم بأن يجردوك من هذا الأسلوب. حتى لو كان سيئًا، ويبدو لي كذلك إن أصدقت القول، ولكنه رغم ذلك أصيل، حقيقي. قد يكون سرد روايتك متكسّرًا، ولكنه حميميّ، ثوريّ، شبيهٌ بطريقة كلامك عندما تتلعثم بالحديث أمام العامة. ولكن لا تفكر بنشرها! إياك. فلا دار نشر محترمة ستقبل بها. الناس لا يريدون الصياغة الحقيقية. إنهم يبحثون عن الزخرفة اللغوية والأفكار النسائية. سيقول ناقدٌ وهو ينظّف عدستيّ نظارته بقماشةٍ ناعمة «كتابٌ مكرّر، حياةٌ عادية، فشلٌ إنسانيٌ آخر». ثم يلبس نظارته ويُرجع إليك المسودة. «في المرة القادمة ربما» فتشعر بعار هذا الاستهزاء الواضح لأن الحياة تحدث مرة واحدة فقط، ولا توجد مرةٌ أخرى.

ولنكن واقعيين من جهة، لنرَ حياتك جيدًا من ناحية القصة، لا الأسلوب. فلا خيال في حكايتك؛ كل أحلامك تتمركز في زيادة راتبك وقتل حماتك ومعاشرة سلمى حايك، وربما ضربها أثناء ذلك. لا حبكة مفاجئة. لا تطوّر استثنائي للشخصية. مكرّر. فشل إنساني آخر. من سقوط برج بابل إلى سقوط أبراج مانهاتن التجارية. تاريخ يكرّر ذاته بغباء.

صَه! هل تسمعْ؟ لقد توقّفت صافرات الدوريات فجأة عن الاقتراب. تُرى هل تراجعوا؟ المهم. انظر لهيئة كتابك، لم يبدو

هكذا؟ صفحات مهترئة، متآكلة. ألا تمارس الرياضة؟ لا؟ ماذا عن الخضروات؟ لِترين من الماء؟ لا عجب إذًا أن الصفحات مصفرّة هكذا. ماذا عن كريمات الترطيب؟ إني أرى بعض الصفحات متجعّدة. حسنًا اسمع. ما زلت في الواحدة والثلاثين من عمرك. لست متأخرًا بعد، و... ماذا؟ تريدني أن أتوقف عن تقديم النصائح؟ ها أنا تركت الكتاب، قل لي يا سيّد، لم أنت هنا إذًا؟ أعلمُ أنك توصلت لقناعة أن الانتحار هو من سيجعلك تشرد من هذا الكتاب، تخرج عن النص كممثلٍ موهوب، كما أنها خطوة انتقامية نهائيّة؛ الانتقام من النفس! ولكن أخبرني، إلى أين تريد أن تذهب الآن؟ ما الذي تريده مني؟

أوه، واو. نعم نعم، فهمتك يا رجل، أخفض صوتك! قد يكون رجال الشرطة بالقرب منا ونحن لا نعلم. هدئ من روعك. تريد أن تعرف من هو المؤلف الرديء -على حد قولك- الذي ألف كتابك؟ هممم، يبدو أنني استهنت بقصتك، ولم أتوقع هذا المنعطف الذي تتجه إليه. رجلٌ انتقاميّ يبحث عن مؤلف حياته، أو منتحرٌ يبحث عن إلهه، يا لها من قصة! إلا إنها خطوةٌ انتقاميّة أخرى. عمومًا، سؤالك وجوديٌ بحت، وأسئلة كهذه لا تملك إجابة أبدًا. ولكن ألا يمكن أن يكون هذا الكاتب هو أنت؟ لا؟ تقول أن الآخرين تدخلوا في حياتك، أكثر مما تدخلت فيها أنت. أفهمك. ولكن ألا يمكن أن تكون هذه غلطتك؟ لا؟ أها، طيب. ولكن انتظر، هل تسمع؟ إنها خطوات

رجال الشرطة في الممر وهم يقتربون من الباب ويتشاورون بكيفية فتحه. هه، تصوّرت ذلك. اطمئن، لا عليك. ولكن قبل أن يقتحموا علينا المكتب، اسمح لي أن أسألك هذا السؤال: قبل أن تستفسر عن هوية هذا الكاتب، هل أنت متأكد أنه موجود؟ رأيي أنا؟ لا أدري إن كنتُ متأكدًا من ذلك، ولكن ما أدريه حق الدراية، أن رجال الشرطة في الخارج يضيعون وقتهم، تمامًا مثلنا ونحن نتصفّح كتابٍ نهايته لم تكتب بعد. ولا يبدو لي أنها ستُكتب. وسنظل أنا وأنت ورجال الشرطة في هذه الحكاية، في هذا المشهد، عند هذا السؤال، ننظر لبعضنا بعض، طوالَ أبديّةٍ كاملة، نفكر في هوية هذا المؤلف، متوقعين إلقاء القبض علينا في أي لحظة، بينما الزمن من حولنا يتباطأ، والباب يفتح بتريّث، والأوامر بالاستسلام تخرج من حناجر رجال الشرطة بصعوبة، وتتجمّد الحركة لدرجة أننا لن نستطيع أن نحرك أعيننا تجاه الباب، ويخمد الزمن تدريجيًا حتى يتوقف، لأن المؤلف نفسه قرر، في هذه اللحظة، أن يكبح عن تكملة هذا المشهد.

لن يتأخر أبوك كثيرًا

صفيرُ كابحِ سيارةٍ يتفشى في الفضاء. كانت ليلة الجمعة في آخرها، دقائقٌ قليلةٌ قبل انبلاج الفجر، وعليه أن يسرع.

توقّفَ علي طوعًا عند الإشارة الحمراء وهو يتمتم مستعطفًا القدر حتى تخضرّ ويتابع طريقه. راحت أصابعه تنقر على جلد المِقود المقلّم، أخفض من صوت الراديو في الخلفية، وأضحى حفيفُ تيار هواء التكييف أعلى في لحظات.

إنها الرابعة فجرًا، والضباب يتشعّب في أرجاء المكان. ريح ديسمبر الباردة تنفض الشوارع الفارغة من بعض الإعلانات المرميّة وأوراق الشجر الميّتة. لم يكن ثمة أثرٌ لسيارةٍ أخرى، وحده علي كابحٌ عند إشارةٍ حمراء، والمدينة من حوله خامدة، وكأنها هُجرت ليلًا وهو نائم.

الغمص لا يزال معلّقًا في عينيه. لم يخبروه بالتفاصيل. كل

ما قاله الطبيب -أكان الطبيب مَن هاتَفه أصلًا؟- كل ما قاله ذاك الرجل، أو كل ما سمعه وهو بالكاد يفتح عينيه، كانت حفنة كلماتٍ مبعثرة ولكنها كافية لخلق رعبٍ ودفعه للنهوض والخروج من المنزل بثوانٍ. يتذكّرها بوضوح، أو يظنّ أنه يتذكّرها بوضوح: ابنك بالمستشفى. حادث. لا تتأخر كثيرًا.

راح يتلفّت من حوله. يريد أي علامة إلى أن في الموقف الحالي خطأٌ ما. لا يدري ما هو بالضبط ولكن ثمة خطأ، لا يمكن أن تدأب الإشارة باحمرارها كل هذا الوقت. لقد مرّت أكثر من سبع دقائق الآن!

فتح النافذة وراح يمعن النظر بالإشارة، وجهًا بوجه، أهي معطلة؟ أنشأ يتلفت من جديد، من ورائه ومن أمامه، ويعود ينظر للإشارة مجدّدًا. كان الهدوء ثقيلًا. قال بصوتٍ مسموع: لا أفهم! ولم يألف تلك النبرة الحادة التي خرجت منه. ضغط على المقود وراح بيده الأخرى يلعب بلحيته. حسين يحتضر! استغفر بصوتٍ مسموع. أراد أن يهاتف المستشفى حالًا، أو بالرقم الذي اتّصل به وأنبأه بالحادث. يريد معلومات أكثر. شيء يطمئنه بأنه مسوّغٌ للتأخير، وأن كل هذا عبارة عن فزعةِ استيقاظٍ من الرقاد، تضخيم وسوء تقييم للأمور. وهكذا راح يفتّش عن موبايله من حوله، في فتحتي الأكواب عن يمينه، على المقعد المجاور، جيبَيْ دشداشته، ولكن لا شيء. آآآآه! أصدر أنّةً حينما أدرك بأنه نسي هاتفه في المنزل.

راحَ يفرك عينيه بشدّة. من أين ظهرت له هذه الإشارة؟ كان المستشفى لا يبعد الآن إلا حوالي عشرَ دقائق، هناك في آخر الشارع، مع ذلك، وبوجود هذه الإشارة الحمراء، لم يعد ثمة فرقٍ بين آخر الشارع وآخرِ الأرض.

تذكّر غزلان فجأة. ما الذي ستتلفّظ به إن علمت بالخبر ووصلت إلى المستشفى قبله، واكتشفت بأنه لم يكن بجانب ابنهما في لحظاته الأخيرة بسبب إشارة حمراءٍ لعينة؟ سيؤكد ذلك كل مزاعمها تجاهه عندما سألته الطلاق. قالت للمحامي بالحرف: علي لا يطاق، تشعر معه وكأنك تعيش في مخفر الشرطة. ربما لذلك لم تقلق كثيرًا على ابنها في اليوم الذي تزوّجت فيه ثانيةً، فالحضانة لعلي حسب الشرع، ولكنها تفطن بأن الأطفال بطبيعتهم كائنات فوضويّة، ولذا كانت تترقّب اليوم الذي سيُضرب فيه باب بيتها وتجد خلفه حسين الصغير يقف مع حقائبه. إلا أن ذلك لم يحدث. فقد كان حسين أجدى ما حظي به علي في حياته، لدرجة أنه تنازل عن فكرة الزواج مرةً أخرى فقط ليكرّس أيامه في تربية هذا الولد الصغير. أخبرته أمه العجوز: بس واحد؟ فقال لها: واحد مضبوط، ولا عشرة غنم.

لم تكن غزلان لتتوقع ذلك. كان علي ينتظم في زيارات حسين لها. عطلة نهاية الأسبوع عند أمه، والبقية معه. وكلما تفحّصت غزلان ولدها استنكرت الشخصية التي نشأ عليها. لم يلعب حسين يومًا مع إخوته من أمه؛ محمد ودلال. لم تغره الحلوى

والمشروبات الغازية وحرية باب المنزل المفتوح. لم يستسغ أفلام الكرتون ولم يصدر صوتًا مزعجًا واحدًا في المنزل. كانت غزلان تشعر برجلٍ غريبٍ في بيتها كلما شاهدت طفلها. قالت لعلي مرة: ابنك ناضج وهو في الخامسة، يعرف كيف يمسك الشوكة والسكين، يعرف كيف يحيّي الرجال والنساء، لا يتحدّث خلال مضغه للطعام، يعرف كيف يجلس، يغيّر ملابسه، يذهب إلى الحمام، ولكنه لا يعرف كيف يقذف كرةً لعينة!

مرّت أكثر من اثنتي عشرة دقيقة الآن. لمح أثناء تلفته الساحة المواجهة لمدرسة الثانوية التي ارتادها قبل أكثر من عشرين عامًا. لا يزال المشهد ذاته الذي يتذكره؛ جدران مليئة بالذكريات والأشعار، سلة قمامة عملاقة، عروض التفحيط في المصافط، سور المدرسة المكسور في أحد جدرانه حيث الصبية يقفزون من خلاله أثناء اليوم الدراسي. لا يستطيع أن ينسى بالذات النقطة الأخيرة، حين كان ينظر لأولئك الصبية كشرٍ خالص. حتى لو لم تكن ثمة دروس في تلك الأوقات المتأخرة من الفصل الدراسي، فالالتزام بالحضور هو التزامٌ بالحضور، سواء أُعطيَت الدروس في تلك الأيام أم لا.

أخذه المشهد الذي يتأمله لحريةٍ كان يستشعرها كل صباحٍ وهو يحثّ طريقه للمدرسة مشيًا على الأقدام. كانت القضيةَ أبسط من هذا كله: إن تأخّر، استعجل خطواته. وإن أبكرَ، تقاعس وراح يدندن أغنيةً ما. لا حدود هناك لتنقّلك في المكان

إلا قيودك البيولوجية، ولا تدخّلات من قبل آخرين كهذه الإشارة المخوّلة لإيقافك من أن أجل أن يعبر آخرَ لا تعرفه، ولا تراه في غالب الأحيان. ما زال يعجز عن استساغة فكرة أننا لا نستطيع أن نعبر جميعًا معًا، بجانب بعضنا بعض، وأن على أحدنا أن يتخلّف ليعبر آخر.

لا تزال الإشارة حمراء، ولا أثر لحيٍ في الأرجاء، ولا ينأى علي عن هز قدمه وهو يشتم ويلحق الشتيمة باستغفار. من حيث يقف كان الليل لا يزال مخيمًا، ولا أثر للنور في الأفق. إلا أن باستطاعته رؤية أمارات الفجر في آخر الشارع من وراء طبقة الضباب الخفيفة، حيث المستشفى، حيث حسين وهو يحتضر، ومن فوقهما تتفتّح ألوان السماء تدريجيًا وكأنها تعدُ بأملٍ ما، أو تمهّد لوقوع كارثة وشيكة. فكّر بأن يترجّل من السيارة ويعدو ركضًا للمستشفى، فهو يبعد حوالي خمسة عشر كيلومترًا تقريبًا. إلا أن ذلك سيكون مهلكًا له، وهو الذي لم يمارس الرياضة لسنواتٍ عدة الآن. ولكن المعضلة الحقيقية كانت بترك سيارته في هذا المكان؛ هل من القانوني أن تُركن السيارة هكذا وسط الشارع بلا عطلٍ قاهر؟ راح ينظر للشوارع الثلاثة الأخرى المشتركة معه في ذات الإشارة؛ عن يمينه ويساره وأمامه. أمعن النظر بكلٍ منهم مفتّشًا عن ضوء أي سيارةٍ قادمة من بعيد، ولكن لا شيء. ما الذي يفكّر به؟ لم يبحث عن سيارات أخرى ومعضلته هي الإشارة؟ أمعقولٌ أن يفكّر بالعبور خلسة؟ نفخ من فمه لينظّم

تنفسه وعاد ينظر للإشارة كمن قُبض عليه متلبّسًا بجرمٍ ما. لا يمكن أن يفعل شيئًا بدائيًا كمخالفة القانون! كيف يجرؤ؟ فهو يعدّ نفسه من أولئك الذين يحفظون مصلحة الأمة وصيانة نظامها وضمان بقائه، من المجنون الذي قد يعمل عكس ذلك؟ هذا سبب رجعيّتنا، قال لنفسه. أن تقدّم نفسك على القانون الذي يجعل من هذا العالم نظامًا عقلانيًا ومتماسكًا. كيف يهدم هذا الصرح العظيم فقط من أجل رغبة فردية أنانيّة؟ عليه أن يتقبل النتيجة إذًا، ويصنفها كسوء طالعٍ له. يؤمن بأن لكل إنجازٍ تضحية ما، ولن يمانع أبدًا أن يكون ضحية الحفاظ على شيءٍ باهرٍ كالنظام.

ولكنّه ابني. إنه حسين. تذكّر بالذات رائحته في هذه اللحظة.

تلفّت حوله من جديد، وإذا بالضباب يتكثّف بسرعةٍ مريبة، حتى أصبح المستشفى في آخر الشارع مستعصيًا على الرؤية.

لا يمكن أن يردعه القانون عن فعلِ شيءٍ بريءٍ كهذا. لا يمكن أن يتدمر النظام من أجل هذا الفعل البسيط فحسب، ثم قد تكون هذه فرصته الأخيرة. كيف سيسامح نفسه إن وصل متأخرًا؟ بلع ريقه، تلفّت من جديد، أغمض عينيه بشدّة، لعن الإشارة، ولعن نسيانه لموبايله، ولعن الصبية الذين يقفزون من فوق الحائط، ولعن الموت المخيّم فوق رأس ابنه، وباللحظة التي فتح فيها عينيه مباشرةً، لعنَ نفسه أخيرًا، وقرّر أن يعبر.

شاهد المرآة الجانبية من يمينه، والمرآة الجانبية من يساره،

والمرآة المعلقة فوقه. لا أحد. شعر بكفيّه متعرقتين وهما تضغطان على جلد المقود. عضّ شفته السفلى. زفر من منخريه. أراح من ضغطة قدمه على الكابح، فاستمع لحبات التراب وهي تتحطّم من تحت عجلتي سيارته الأماميتين واللتين تحركتا تقريبًا خمسة سنتيميترات للأمام، وذلك قبل أن يلمح قطًا على الرصيف الآخر يبحلق في عينيه مباشرةً.

داس على الكابح بقوةٍ مبالغة جعلت من جسده يرتمي للأمام. كانت شدّة حزام الأمان خانقة على صدره لدرجة أنه بدأ يكحّ ويراقب القط بعينين مرتعبتين ودامعتين. هدأ من نوبة سعاله في حين أن القط ما زال يراقبه بعينين لامعتين من وراء أغشية الضباب. ما بالك يا علي؟ إنه قطٌ لعين! ولكن المشكلة ليست بمن يراقب، بل بأن هناك من يراقب.

لا يدري لم بدأ يفتّش عن موبايله مرةً أخرى، رغم أنه يعلم بأنه ليس معه. ولكنه استمر بالبحث. عليه أن يفعل شيئًا ما، مهما كانت عبثيته. كيف يعقل أن يجلس بمكانه هذا محدّقًا وجهًا بوجه مع الإشارة الحمراء؟ أليس هذا ما يفعله المرء طوال الوقت، البحث عن أشياءٍ وهمية حتى لا ننظر للحقيقة الصارمة من أمامنا؟ قال لنفسه بأن حسين قد يعيش، وإن اخترق القانون سيلعن نفسه فيما تبقى من عمره. إنه لا يخشى مواجهة الجهاز التنفيذي واستلامْ العقاب، إنه خائفٌ من مواجهة نفسه. كيف سيكون كفؤًا لتربية حسين أساسًا؟

ولكن، إن مات حسين؟ ما معنى التزامه بالقانون إن مات حسين الصغير؟

راح يضغط على مزمار السيارة بشكلٍ متواصل. أين اختفى الجميع؟ استمرّ بالضغط، ولم يزد ذلك إلا من عمق الصمت حوله. فليسمعه أحدٌ ما، أي أحد، فليخبره بأن الإشارة معطلة، وأنه يملك كل الأحقية لتجاوزها ورؤية ابنه. ولكن لا أحد إلا تكثّف الضباب من حوله، وأضحى لا يستطيع الآن حتى ملاحظة القط على الرصيف الآخر. وبشكلٍ تلقائي، خفّف من ضغطة قدمه على الكابح، وبدلًا من سماع حبيبات التراب وهي تتحطم هذه المرة، كان ينصت لقلبه وهو يضربُ جدار صدره. بخار الضباب يضرب النافذة وينتشر على سطحها لأنه بدأ يتقدّم إلى الأمام. لا يعرف سرعته تمامًا إذ لم يكن يرى من المحيط حوله إلا البياض الخالص. راح يتمتم كلماتٍ مبعثرة وهو ينتظر ظهور وهج الإشارة الحمراء على الرصيف المقابل. وبعد لحظات، ظهرت الإشارة المقابلة، ومن تحتها الرصيف.

لقد عبر.

شعر بحرارةٍ عالية تتشعّب في مقدّمة رأسه. هبط صدره، وراحت يداه الممسكتان بالمقود ترتجفان. لقد عبر. يا للعار. لقد عبر علي الإشارة الحمراء! كيف سيفسر هذا لنفسه؟ كيف سيكون كفؤًا لأن يكون أبًا لحسين؟ آه، حسين! لا وقت للعقاب إذًا، فحسين ينتظر، وعليه أن يسرع.

ضغط على دواسة البنزين مخترقًا أغشية الضباب. ارتسمت على وجهه ابتسامة لا يعرف معناها. شعر بحريةٍ لذيذة وهو يقود بسرعة ستين كيلومترًا في الساعة مرةً أخرى. أراد أن يهرب من الذي اقترفه، أن ينساه إلى الأبد. كان الضباب يتلاشى من حوله كلما تقدّم، تمامًا، كما كانت الابتسامة كذلك تتلاشى من وجهه. بحلقت عيناه. أخفض من ضغطته على البنزين، وهو يتمتم: يا إلهي. راحت سيارته تبطئ حركتها، وهو لا يزال يبحلق أمامه، متمتمًا: يا إلهي.

انطلق صوت كابح السيارة في الفضاء، وكان وحده، يقف مجدّدًا عند إشارة حمراء أخرى.

ثمن العالم عشرون فلسًا

كان رابضًا في مكتبه صباحًا عندما وصله الخبر. جاء على شكل رسالة نصية على هاتفه. قرأه وهو غارقٌ في كرسيه الدوار، ولم يتطلب الأمر أكثر من لحظاتٍ قصيرة حتى أدرك الأمر. في البداية، كانت هناك انحناءة لجسده على طاولة المكتب، عُقدة في الحاجبين، سطوع على سطح الحدقتين، ثم إعادة قراءة للرسالة النصية. أغلق الهاتف من زره الجانبي، وبشرودٍ مفاجئ، وقف. ذرع غرفة المكتب جيئةً وذهابًا، يفكّر، أو يبدو كمن يفكّر. شعر بكتفيه متنمّلتين، وبالأرض من تحته وكأنها هبطت فجأة مترًا واحدًا. توقّف. تصفّد ظهره عرقًا باردًا. زفر من فمه ببطء. نظر إلى الساعة على مكتبه، وكانت تشير لحظتها إلى العاشرة صباحًا. سأل نفسه لِمَ هو واقفٌ ولا يكون عوضًا عن ذلك جالسًا على كرسيه؟ ربما عليه أن يفعل شيئًا. ماذا؟ لا يدري، ولكن مهما كان ذلك الشيء، فإنه يتطلب الوقوف، وربما المشي لمكانٍ آخر، إذ أن ما

عليه أن يفعله لا يبدو أن مكانه هنا، ولكن ماذا؟ وأين؟ غير مهم، لا وقت هناك ليضيّعه الآن. ثمة أدرينالين، طاقة، ولهذا عليه أن يقف، ويمشي. ليبتعد. يبتعد عن ماذا؟ خرج من باب مكتبه وانطلق يمشي خببًا في ممرات الشركة المتشابهة والمؤدية إلى الباب الخلفي للمبنى. موّظفون على يساره يسيرون في الاتجاه المعاكس. آخرون متوجهون إلى أماكن أخرى كذلك، ولا يمكن التأكيد إذا ما كانوا يعلمون إلى أين. وجوه تُفكّر في أشياء. سيماء غير واضحة، سارحة في خطواتها. تسترق نظرات لوجهه وسرعان ما تشيح نظرها. الغرباء متشابهون مهما تباينوا فيما بينهم. لا أحد يدري عنه، وعما يفكر، وإلى أين هو متوجه. ولا هو يدري عن أحد، وعما يفكرون به، وإلى أين ذاهبون. اسمح لي، قال عندما اصطدم كتفه بكتف آخر رماهُ بنظرةٍ مستنكرة. استأنف خطاه. كان يعلم الطريق للمخرج جيدًا، ولكنه بدا هذه المرة أطول. في الخلفية مزيجٌ من أصوات الطابعات ورنين الهواتف ونقر على الكيبورد، متداخلة في خلفية حلمية وكأنها لا تخصّ المكان من أمامه. هلا والله، ردّ السلام رافعًا يده لزميلٍ لمحه من بعيد. تخضّب وجهه بصفرةٍ مريضة. حاول تركيز نظره إلى الأمام. لا يملك ترف اختلاق نكتة عابرة أو الخوض في محادثة مصطنعة. كل ما يهم الآن هو أن يبتعد، أن يفكّر مليًا بما قرأه في تلك الرسالة. أن يتأمله، علّه يصدّق، أو يفهم.

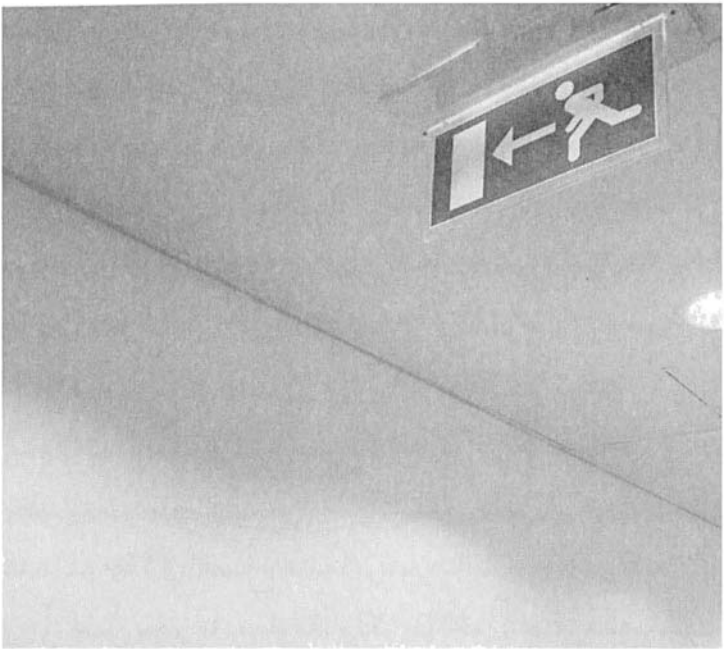

خرج من الباب الخلفي أخيرًا. أغمض عينيه تحت وهج صفرة الشمس الطاغية. لفحه هواءٌ حار خدّر لحم وجهه. كل شيء يلمع من حوله. أطبق جفنيه بنصف إغماضة، فتحوّل المنظر لظلامٍ يؤطّر هالة ضوء محمرّة. بريقُ الأشياء ساطع أكثر من اللازم، فكّر في نفسه. حاول أن يفتح عينيه قليلًا ولكن عبثًا، لم يستطع أن يميّز شيئًا من آخر. ولكنه رغم ذلك يمشي. ويتابع المشي. الحرارة تتزايد وتتشعّب على كتفيه، باعثةً على سطح جسده حميميّةً ملتهبة.

هنا، لقد وصل، إلى أين؟ ممر مظلّل يقع بين المباني الرئيسيّة الثلاثة للشركة، ويطلّ على ساحة مزيّنة بنافورةٍ ضخمة ونخلات

متناثرة من حولها. الآن، ولأول مرة، ارتسم على وجهة تعبيرٌ ما؛ إنها ابتسامة. ماذا تسمى تلك الابتسامة التي تنشأ من وقوع ألمٍ متوقّع؟ كانت هذه. وسرعان ما كبحها عندما شعر برطوبةٍ في طرفيْ عينيه. راح يتأمل المشهد من أمامه. بدا كل شيءٍ متكدّسٌ على نفسه؛ لمَ يلتصق الحجر ببعضه بهذه الصورة الخانقة؟ لم لا يتوقف ماء النافورة عن محاولة الفرار والسقوط على وجهه كل مرة؟ لم تبرز فوهة النافورة كهوةِ انتحار للماء؟ لم يلوح سعف النخلات المتشعّبة وكأنها تصرخ؟ لقد مرّ من هنا صباحًا، وكان ينظر للمشهد بحيادٍ ناعس. ما الذي تغيّر الآن؟ لم يبدو مقيتًا إلى هذه الدرجة؟ في الصباح عندما مرّ من هنا كان رجلًا، ولكنه الآن رجلٌ محملٌ بخبرٍ ما. معلومة. ولكن ما الخبر؟ استفزّه أنه بالذات خبرٌ متوقّع. وما الذي درى به؟ إنها عبارة واحدة، دستة كلمات، ستٌّ ربما، لا يذكر تمامًا. وبعد؟ إنها دلالة. على ماذا؟ على شيءٍ ما حدث. وماذا يمكن أن يحدث؟ كل شيء ممكن أن يحدث. اللعنة! إنها قيامة؛ كل شيء سيتغير الآن، أحلامه وأناسه وربما ذكرياته. سيختار ألا يتذكر أشياء قد يتسبب ظهورها بالحسرة. بدايةً من الصفر مجدّدًا. إنه اندثارٌ تام لحياته القديمة. قيامةٌ بوقها له صوت رنّة استلام رسالةٍ نصيّة.

ابتلع ريقه مرةً، ومرّتين، وأحس بجفافٍ في بلعومه. اختفت الأصوات من حوله وصار خرير مياه النافورة مرادفًا لتدفّقِ جريان الدم في عروقه. أراد أن يعبّر عن اشمئزازه بقول شيء.

خرا، قال. وأحسّ بارتياحٍ غريب. خرا، أعادها مرة أخرى، ولكنها لم تحدث التأثير ذاته في المرة الأولى. خرا خرا خرا خرا، ردّد بنفسٍ واحد، بلا جدوى، إذ ما زال كل شيء على ما هو. أكلُّ هذا لأنه علم بالخبر؟ يا لخطورة أن تعلم! وازداد وجهه اربدادًا وهو يشاهد المنظر، يبحث عن نقطة تستحق منه بعض الانتباه، ولكن ... خرا! هرش ذقنه، ثم صالب ذراعيه. لقد أضحى متورطًا فجأة بكل هذا، ولكن ما هذا الذي تورط به؟ كلمات؛ كلماتٌ تحمل في داخلها دمار العالم.

نسترجع أحلامنا في تسكعاتنا الأخيرة

ما زلت أذكر اللحظة التي حلمتُ بها بسبرِ ذاكرة أبي، عندما كنتُ جالسًا في حوش بيتنا، ساعة المغرب، ولم أكن أتصوّر أن شيئًا كهذا من الممكن أن يكون خطرًا إلى حد أنني لم أعرف حتى اليوم الخروج منها.

قبل سنواتٍ طويلة، في حوالي سنة ٢٠١٣، توفي والدي عن عمرٍ يناهز الثانية والستين عامًا. عُرف حتى سنواته الأخيرة بالدأب على التسكّع في البرّ الذي يقبع خلف منزلنا القديم. كان يلتقط عصاه بعد صلاة العصر، ويمضي في طريقه وهو خارجٌ من المسجدِ إلى البرّ مباشرةً. رغم عمره الذي تجاوز الستين حينها، إلا أنه كان قادرًا على الغورِ عميقًا في الصحراء حتى يُمسي نقطةً ترتجفُ على خطِّ المدى البعيد، ثم يعود مرةً أخرى عندما يُرفع أذان المغرب. كان يواظب على تلك الممارسة يوميًا، ولا يكاد ينقطع منها، حتى بدا لي بأنه كان يصطحب الشمس في

صعوده ونزوله للتلال، فتنعس هي وتخلد للنوم، ثم يعود هو أدراجه للمدينة.

كنت أبلغ من العمر سبعة عشرَ عامًا حينها، على مشارف التخرّج من الثانوية العامة. لا أذكر أنني جالست والدي وخضت معه حديثًا عابرًا قبل ذلك الوقت. ففي كل سنواتي السابقة، لم يكن ذاك الرجل بالنسبة لي سوى شبحٍ يجوبُ البيت والشوارع والصحراء. حتى أمي، لم تكن تجالسه قطّ. هي في الصالة، وهو في الديوانية. ولا أذكر مذ كنت صغيرًا أني رأيتهما ينامان معًا في المكان نفسه. وفي تلك السنة، السنة الملعونة كما كنت أسميها، تخاذلت ركبتا أبي، فأُجبر على الكفّ عن تلك العادة، وأضحى يلازم الديوانية طوال الوقت مع زياراتٍ مستعصية للمسجد باستخدام عصاه. كانت كآبة أبي هائلة لدرجة أنها طفحت منه وأغرقت المنزل بأكمله، ما عدا أمي. عندما علمت بالخبر ضحكت وهي تعرجُ في طريقها إلى الحمام. ترامت لي قهقهتها مع بعض من كلماتها التي تداخلت مع خرير مياه الحنفية من خلف باب الحمام المغلق. قالت أشياء مثل إن الله كبير، عادل، ولا ينسى. أدركتُ عندما خرجَت بأنها كانت تتوضأ، ثم صلّت ركعتين وأطالت في سجودها.

عندما تخرّجتُ من الثانوية في العام نفسه، لازمتُ المنزل أشهرًا عدة أحاول أن أقرر فيها خطوتي التالية. كنتُ أفكّر بالدراسة في الخارج، ولكني لم أرغب بترك أمي وحيدة بصحبة

رجلٍ بقدمين متخاذلتين. الفراغ الذي خلفته المدرسة جعلني قادرًا على ملاحظة الوحدة المحيطة بوالدي. لقد غلبهُ النكدُ وبدا فاترًا، لدرجة أنني، ولأول مرة، بدأت أجالسه. كان شاردًا طوال الوقت، وكنت صامتًا أراقبه، ولم تكن لدي مشكلة في ذلك إذ أني لا أعرف ما الذي يتحدّث عنه عادةً، أو من هو وما هي شخصيته، ولذا كان كل ما كنت أصبو إليه هو أن أجالسه على الأقل، وألا أتركه وحيدًا مع ركبتين هشّتين، بَدَوا لي بأنهما طوال هذه السنوات قد قطعا كل صحاري الأرض.

قضى عامه الأخير بأكمله هكذا؛ يجلسُ ساعاتٍ طويلة في الديوانية، يبدو كمن ينتظر أحدًا رغم أن أحدًا لم يأتِ، يذهب بتقاعس إلى المسجد مستندًا على عصاه كلما سمع الأذان، ثم يرجع ويجلس مترقبًا، وهكذا حتى الأذان القادم. كان يحدّقُ طويلًا في الأرض، للسجادة الفارسية الزرقاء المنقوشة تحته، بنظراتٍ مرتبكة وكأنه يرى في زخرفاتها وجوهًا يعرفها جيدًا، ثم يبدأ بالكلام مع نفسه، أو معها. ورغم أن عينَيَّ لم تكن تفارقا موبايلي، إلا أنني كنت أرفع رأسي من وقتٍ لآخر، أتأمله. كانت له قدمان متشقّقتان، بقع سوداء في صدغيه، عينان غائمتان، ويجلس بطاقيةٍ على رأسه، وبجانبه دومًا غترةٌ وعقالٌ وعصًا. تظهر منه ألفاظ غامضة مثل «عوز» ويطيل المد قليلًا، أو يقول «حَمَر» بلا سياق أو دلالة معينة، وأحيانًا كان يعدّ الأرقام من واحد ويستمر لنهاية التسعينات، ولكنه لا يصل أبدًا للمئة. عندما يفرغ من

صلاة المساء تجده كمن لم يعد يملك شيئًا يفعله مع الحياة اليومية، وكأنها شيء بعيدٌ عنه، لا يخصّه، ولذا ينام مباشرة في الديوانية، ولا يصحو إلا على أذان الفجر الأول. كثيرًا ما كان يستيقظ من نومه ولا يجد عصاه بجانبه، يصرخ لينادي أحدهم، بيد أن الجميع نائمٌ في الطابق العلوي. يحدث هذا مرةً كل أسبوعين تقريبًا. لن يخفى على الناظر كم يشحب وجه والدي في اليوم الذي لا يذهب فيه للمسجد فجرًا، يرمي طاقيته ويحكّ صلعته، يتربّع بدل من أن يمدّ ساقيه، يحني رأسه إلى الأمام، ويردّد بأنه ملعونٌ ومعاقب. كنت أسارع بشراء عصاةً أخرى قبل أذان الظهر، إذ عجزت أن أتخيل ما سيؤول إليه حاله لو فوّت صلاتين متتاليتين. قالت أمي: توقّف عن تبذير المال، إنه يضيعها بنفسه، ثم يبحث عنها، إنه مجنون مثل إخوته، كما أنه أمسى خرفًا كذلك.

ذات يومٍ من ذلك العام، كنتُ جالسًا مع أمي في الحوش، مفترشين سجادةً قديمة، نشرب الشاي والقهوة. ما إن رُفع أذان المغرب حتى خرج أبي من باب الديوانية المطلّ على الحوش وهو متكئٌ على عصاه. كانت الغترة مفروشة على صلعته من غير طاقية ولا عقال. لبس نعليه بصعوبة وهو يتكئ بيده الثانية على الحائط، ثم راح يسحب قدميه، يمشي أو يزحف، وظللنا نراقبه ونسمع وخط نعليه على طول الحوش وهو في طريقه للخروج من المنزل. بدا المشهد وكأنه صُوِّرَ بتقنية الحركة البطيئة، فلقد تطلّب الأمر منه حوالي دقيقةً كاملة حتى يصل إلى الباب الرئيسي الذي يبعد

عنه حوالي خمسة أمتار. عنيد، قالت أمي. بدا المشهد وكأنه بحاجةٍ لتمحّص، وفهم. تركت موبايلي ولفحني نسيمُ ديسمبر الخضل فاقشعرّ جسدي، ثم التفتُّ لوالدتي، التي ظلّت عيناها معلّقتان على الباب الذي خرج منه للتو، واستفسرتها حول مزاولة والدي لمشيه الطويل في البر، ولم للأمر تلك الأهمية بالنسبة له، فأجابت: مبارك؟ إنه يتذكّر. وتركت بعض الصمت وراء هذه الكلمة وكأنها تريدني أن أمتصها جيّدًا، وأفهمها. قد يكون الصّمت المهيمن الذي لحق كلمتها، أو الشّمس المسهمة نحو المغيب بوهجٍ كهرمانيٍّ قانٍ، أو برودة الهواء الكثيف المعلق بالجو، أو كل هذا مجتمعًا من استطاع في ثوانٍ قليلة أن يرطبّ عيني وأنفي. إنه يتذكّر. لقد كانت تلك الكلمة كفيلة بتغيير مصيري. في الحقيقة، لا أظن أني فهمت ما كانت تعنيه وقتها، ولم أفكر يومًا بمعنى الوقت أو شعرت بالحنين لزمنٍ لا أعرفه قبل تلك اللحظة. كانت تلك المرة الأولى التي حلمت فيها بكشف ذاكرة أبي، تلك التي اعتادت أن تقوده كل يوم عميقًا في العراء.

عدّلتُ من جلستي وسألتها مجدّدًا عن سبب أهمية الذكريات لوالدي، والتي تبدو وكأنها وقوده لما تبقى من حياته، ولم لا يستطيع أن يمارسها إلا أثناء التسكّع؟ كنتُ مشوّشًا، ولم أفهم العلاقة القائمة بين كل هذا. فقالت لي أنها هي نفسها لا تفهم أبي، ثم أضافت بصوتٍ منخفض وهي تصبُّ الشاي: أخبرتك، مبارك مجنونٌ مثل إخوته.

سمعت مسبقًا أن لأبي شقيقًا أصغر منه يدعى فهد، عمّي المجنون الذي مات صغيرًا في سنوات شباب أبي. ولديه أخته، عمتي نورة، كانت تعيش معنا في المنزل وماتت كذلك عندما كنتُ في العاشرة وهي في الأربعين من عمرها. لم أعتقد بأن أبي مجنون، على حدّ تعبيرِ أمي، ولا عمتي نورة، رغم أنني لا أملك العديد من الذكريات عنها. أما فهد فلستُ متأكدًا منه إذ أنه توفي قبل أن أولد بسنواتٍ طويلة، وبالتالي لا سبيل لمعرفته إلا من خلال ذاكرة أبي الذي لم يتحدّث عنه مطلقًا، وكأنه نَسي أمره تمامًا.

لستُ متأكدًا ما هو اسمي، وأمي تكذب بهذا الخصوص. لم أتعلّم القراءة والكتابة ولذا لا أستطيع التأكد من المكتوب على تلك البطاقة التي تحمل صورتي وتسمح لي برؤية الطبيب. اسمي المجنون ومع ذلك تصرّ أمي أن اسمي فهد. أخبرها أن لا أحد يناديني بفهد وأن اسمي المجنون والجميع في الخارج يعرف ذلك ولكنها تصرّ وتصرخ وتعترف أخيرًا أني كذلك: مجنون.

لم تكن عمتي نورة حاضرة إلا في سنواتي العشر الأولى. وها هي تتشكّل الآن أمامي من أقاصي الذاكرة، مشوّشةً بعض الشيء. امرأةً هزيلة، تلبس برقعها وشيلتها على الدوام، لا أرى منها إلا عينيها الدائريتين وكفّيها المتمسّكتين بثوبها الأخضر. لِمَ لَمْ أتذكر شكلها هذا قبل هذه اللحظة، رغم أنها تقبع بهذا الوضوح في رأسي؟ ما هي أقدم ذكرى أتذكرها أساسًا؟ لِمَ ثمة

اتفاقٌ بيولوجيٌّ على فقدان الذاكرة الطفولية؟ ما الذي نحاول أن ننساه؟

وكأنني رجعت للتاسعة من عمري، وها هو باب حجرة عمتي نورة موصدًا أمامي. أقترب منه، برهبة كمن يقترب من بوابة عالمٍ خرافيّ، غرائبي، لا يشبه شيئًا رأيته من قبل. قالت لي أمي إنها مجنونة، وعليّ أن أحترس منها. لم أكن أعي معنى الجنون وقتها، ولذا استفسرت أمي عن ذلك فقالت: ليست مثلنا، ليست بشرًا سويًا، تملك سكينًا طويلة تقتل فيها من يقترب منها. ومن هنا بدأت أربطها بعوالم أفلام الرعب والخيال، وظهرت كل أمارات الذعر واللذة على وجهي. اعتادت عاملة المنزل أن تترك الطعام والشراب أمام حجرتها، وبعد ساعات نجد الصحون فارغة وأحيانًا ممتلئة لم تُلمس. اشتكت أمي بأن الطابق العلوي من البيت أصبحت رائحته كالمطبخ، وأن الوضع هكذا لا يطاق. أجابها والدي: أختي تجلس في المنزل وأنتِ تخرجين. أذكر هذه العبارة جيّدًا لأن أمي ظلّت تردّدها مع اعوجاج في فمها في مناسبات مختلفة، وغالبًا عندما تكون وحيدة، تشرب الشاي والقهوة. وبطبيعة الحال، ما كان من أمي إلا أن تتقبّل الوضع وتألف إشعال البخور كل اليوم والصبر على مجنونةٍ تشاركها المنزل. أحيانًا كنت ألمح عمتي نورة وهي تخرج، تبحث عن شيءٍ ما ثم تعود أدراجها. وفي أيامٍ جيّدةٍ أخرى، كنتُ ألمحها تنزل للصالة وتتبادل مع أمي بعض العبارات، تسأل عني، تقترب مني لتقبلني

أو تحضنني ولكني أهرب منها دائمًا، وكثيرًا ما كانت تضحك أمي كلما رأت هذا المشهد! كانت تتحاشى أبي كلما لمحته، لا تتبادل معه أي كلمة، تهبّ من مكانها راجعة وراء باب حجرتها المقفول. ثمة قصة لا تكلُّ أمي عن ترديدها. تقول إنها كانت تجالس نورة في الصالة، في واحدة من تلك الأيام النادرة الذي يذهب فيها والدي للمخيم مع أصدقائه، فقدّمت لها استكانة شاي وراحت تحدثها عن أمرٍ ما، فما كان من عمتي إلا أن نهضت في مكانها، أخذت الاستكانة ووضعتها خلف باب الصالة المفتوح، وعادت أدراجها لتجلس مرة أخرى. سألتها أمي: ماذا تفعلين؟ فقالت: إنه يحب الشاي كذلك. لم تخبرنا أمي عما كانت تحدثها تمامًا، ومن قصدت نورة بالذي يحب الشاي. كل ما كانت تقوله بأنها هربت من الصالة، واتصلت فورًا على والدي وقالت: لا تتركني معها لوحدنا، فقد يقتل أحدنا الآخر.

كنت أتحاشى رؤيتها دائمًا، وأهاب حجرتها إذ كنت أؤمن بأنها مسكونةٌ بالجن. حتى والدتي، كانت تهدّدني أحيانًا إن لم أستيقظ صباحًا إلى المدرسة، ستُنادي نورة لتذبحني كما يُذبح الخروف. وكم كان ذلك يرعبني! وذات صباح، فعلتها. كنت كارهًا النهوض للمدرسة، فما سمعت إلا أمي تصرخ باسم نورة، تناديها وتوصيها بإحضار سكينها الطويلة معها، فما وجدتني إلا أتقلب على شراشف السرير، أجهش بالبكاء، وأتضرّع ألا تفعل ذلك. اندفع أبي إلى الغرفة على صوت صراخي، وفي لحظةٍ

واحدة، لم أكن أنا أكثر الخائفين في الغرفة. بحلقت أمي في والدي الذي كان يزجرني لكي أسكت، فنظرتُ لأمي التي كانت تستنجد صمتي بعينيها من خلف كتف أبي، فما كان مني إلا أن أخبرته من وراء دموعي ووجهي المحمر: ولكن نورة ستقتلني بالسكين. دفعت أمي ثمن تلك الحادثة، وضُربت حتى كُسرت ساقها اليمنى، وأصبحت من يومها عرجاء إلى الأبد.

نورة التي كانت تتبول في فراشها أصبحت الآن تعرف القراءة والكتابة. أما أنا فما زلت أتبوّل في فراشي ولكن أمي لا تدري لأن نورة تغسل الفراش كل يوم حتى تحميني من الضرب. أخبر كل من ألقاه في الشارع أن أختي مهمة، تعرف القراءة والكتابة، فيسألونني «بكم ليلتها؟» ويضحكون ولا أعرف كم بالضبط تأخذ. وعندما سألتها مرة «كم ليلتك؟» صرخت أمي وعاقبتني بالحجز في المنزل لأيامٍ عدة. في تلك الفترة كنت أنام في حضن نورة. كانت تقول لي كل شيء يجري من حولنا. تشتري لي من مصروفها الحلوى والألعاب. نشرب الشاي بالحليب طوال الوقت. تقف بيني وبين مبارك كلما أراد أن يضربني. وتصرخ عليه كلما خرج وتسأله أن يأخذني لألعب معه وبقية الصبية. ولكنه لا يفعل، فتبكي هي بدلًا مني.

لم يذهب أبي إلى المسجد مرةً أخرى. بعد مشهد الحوش ذاك، سمعنا أنا وأمي قرعًا على الباب. كانت الشمس قد غابت، وعامود الإنارة المثبّت على رصيف بيتنا قد اشتعل، ولا يستطيع

المرء أن يرى في السماء إلا غيومًا داكنة وأثر رحيل الضوء. فتحت الباب فإذا بجارنا بوصلاح، وبجانبه كرسي متحرك يجلس عليه والدي. كان المنظر مفزعًا؛ أن ترى الأب، رمز القوة والسلطة، قد سلبت منه قدماه. إنها للحظةٌ مفزعة عندما يضحي المرء أقوى من والده. أدخلناه أنا وبوصلاح للديوانية، وترك الكرسي إذ قال بأنه كان لوالده المتوفى، ولا حاجة لهم فيه بعد ذلك. كانت صلاة المغرب تلك، هي الصلاة الأخيرة التي صلاها والدي في المسجد. ظلّ بعدها صامتًا، مذهولًا حسب تقديري، حتى رُفع أذان العشاء بعد فترةٍ من الشرود العميق. قال: لم يحرمني الله من زيارته؟ هل ما زال يتذكّر؟ لم تتبقَّ إلا صلاةٌ واحدة فحسب وينتهي اليوم، لم لا يجعلني أنهي واجبي؟ كانت أمي تسمع هذه الكلمات بتوجّس، أما أنا فقد قدّرتُ أن أمي على حق، وأن الضعف لم يتمكّن من ساقي أبي فحسب، بل من رأسه كذلك.

كانت تلك الحادثة كفيلة بأن تجعلني لا أجالس والدي فحسب، بل تجرأت على الحديث معه. كان أبي مهووسًا بالقصص، كحال كل من أصبح ماضيهم أفسح من مستقبلهم. كل ما يفعله هو حكاية القصص، حتى لو لم تكن لتلك القصة علاقة فعلًا بالموضوع الذي كنا نتحدّث عنه، وبالتالي عليك أن تكون أستاذ تأويلٍ لكي تخرج بسياقٍ ما. فمثلًا إن سألته عن حال ركبتيه، يخبرك أن جابر الخبل[1]، رغم أنه الأقصر بينهم،

(١) الخبل: الأحمق باللهجة الكويتية.

إلا أنه يتمكن بسهولة من ضرب محمد الطنطل(١)، ثم يصمت. وأبدأ هنا في محاولة الربط بين السؤال والحكاية.

سيخبرك بأسماءٍ عدة في قصصه؛ جابر الخبل، جراح المجرم، خالد الرخمة(٢)، سالم الرزين، محمد الطنطل، وإن استنكرت أيًّا من هذه الأسماء سينظر لك نظرة طويلة ويقول: ما تعرف فلان؟! ثم يسند ظهره ويصمت، وكأنه بدأ يفقد ثقته بك، وبالتالي يتوقف عن سرد قصته لأنك لست جديرًا على ما يبدو لتسمعها ما دمت لا تعرف شخصياتها. أما هذه الشخصيات فيبدو أن أغلبها كان من زمنٍ آخر، وغالب الظن أنهم موتى الآن، إلا أن والدي كان يؤمن على ما يبدو بأنهم لا يزالون يعيشون في رأسه؛ فمن عاش يومًا، سيبقى أبدًا في حكايةٍ ما. ولذا فالتذكر والسرد كانا يُشعرانه بوحدةٍ أقل. وهكذا كنت أستمع له دون مقاطعة. أُنصت للقصص وأنا أتعرف على شخصياتها من خلال الحدث، لا التعريف، وأحفظها. وغالبا ما تتقاطع هذه الشخصيات في قصصٍ مختلفة؛ قصصٌ تشكّل عالم طفولة والدي.

كنتُ أستمع لكل تلك الأسماء وأتخيل كل واحدٍ منهم. هذا التمعّن في أشخاصٍ بعينها جعلني أستصعبُ الأمر في البداية. كان كثيرًا عليّ! أقصد الضياع الذي تتوغّل فيه عندما تدرك أن

---

(١) الطنطل: في التراث الكويتي، هو رجل طويل يخرج ليلاً لأكل الأطفال الصغار، ويقال مجازًا للشخص الطويل.

(٢) الرخمة: الجبان باللهجة الكويتية.

لكل إنسانٍ قصّة، وأنك لستَ بطل هذه الحكاية العملاقة، بل مجرد شخصية ثانوية لن يذكرها أحد. ثمة الكثير، الكثير من الآخرين الذين لا تقلُّ قصصهم تعقيدًا عن قصّتك، ولن تكون أنت بالنسبة لهم أكثر من مجرّد عابرٍ آخرَ لم يُلمح وجهه، غريبٍ هاتفهم بالخطأ، أو ظهرٍ يقفون خلفه في طابورٍ لمعاملة حكومية منسيّة.

كنتُ جالسًا مرة معه في الديوانية في أحد أيام أغسطس القائظة، ولم تكن وحدة التكييف تعمل جيدًا. لم يشتكِ والدي، وقلت له إن الجو حارّ وأنا أتنفّس من فمي وأمسح حبات العرق من جبيني. لم يرغب والدي بترك الديوانية، ولم أرغب في تركه وحده. وردًا على تعليقي أخبرني عن قصة خالد الرخمة. قال إنهم كانوا في أيام الابتدائية، الرابع الإبتدائي تحديدًا. كانوا جميعهم صغارًا يربضون في البراحة المجاورة لمدرستهم، في أحد ظهريات أيام السبت الصامتة. كانوا يتجادلون يومها إن كان خالد الرخمة جبانًا فعلًا أم لا. قال جراح المجرم: بلى، وألف جبان. ولولا وجود والدي وجابر الخبل ومحمد الطنطل وسالم الرزين لنشب بينهما قتال، وأضاف والدي: سيذهب خالد الرخمة ضحيته حتمًا. قال جراح بأنه سيختبر خالد ليثبت شجاعته، وبأنه ليس كما يعرف الجميع: رخمة. ثم تحداه أن يذهب إلى الجمعية، والتي تبعد حوالي عشرين دقيقة مشيًا، حافي القدمين. ورغم الاستياء الذي ظهر على وجوه الصبية عند سماع تلك العبارة، إلا أن خالد كان

قد انتصب في مكانه ورمى نعليه وأعلن موافقته فورًا. أخبرني والدي أن الجميع لحظتها خلع نعليه لكي يقيس حرارة الرمل والشارع بقدميه حتى يقدّروا كمية الألم الذي سيخوضه خالد، ثم أقسمَ لي بأنهم لم يستطيعوا أن يتحملوا ثلاث ثوانٍ على بعضها وبدؤوا يتقافزون ويحاولون أن يرتدوا نعلهم الصغيرة كالأرانب المفزوعة. أما خالد فكان قد بدأ مسيرته للجمعية، تاركًا نعليه وراءه، ومتوجهًا نحو جني الشجاعة الموعودة.

لم يتابع القصة، ولكن حسب تدقيقي للخط الزمني لقصص والدي، لم يظهر خالد الرحمة في أيٍ من قصصه بعد هذه المرحلة الزمنية، وذلك على عكس بقية أصدقائه. حاولت أن أستدرجه مراتٍ عدةّ حول مصير خالد الرحمة، وغالب الأحيان كان يحاوبني بما لا علاقة له بالموضوع. أقرب إجابة حصلت عليها كان لها علاقة بقصةٍ أخرى تمامًا، تخصّ سالم الرزين. أخبرني أنه قبل سنوات عديدة، أثناء الغزو العراقي الغاشم، كان سالم أحد الأعضاء الفعالين في المقاومة الشعبية، أولئك الأبطال الذين لا يخافون من التعبير عن وطنيّتهم بصوتٍ عالٍ ودون ضوابط. قال أنه تم القبض عليه من قبل الأعداء، وإنهم لم يروه بعدها، وبأنه ذهب وراء الشمس، مع خالد الرحمة. استغربت من ظهور خالد في هذه الفترة الزمنية المتقدمة فسألت كيف لخالد أن يذهب وراء الشمس؟ فنظر لي مقرعًا وصاح بأن خالد غبي، ذهب وهو حافٍ للشمس، وما دام يمشي منذ عشرات السنين فأكيد أنه

وصل الآن لوراء الشمس. ثم صمت وقال إن سالم عمومًا لحق به، وخالد لم يعد وحيدًا هناك.

أحيانًا تستطيع أن تلتمس بأن القصة خليطٌ من ذاكرة وخيال، إذ كانت التفاصيل المسرودة دقيقة بشكلٍ غير مريحٍ للسامع، ولكن ما لست متأكدًا منه هو القدرة على التفريق بين أجزاء القصة، أكانت من ذاكرة أم خيال. لقد تلاشى الخط الفاصل بينهما. ومن يستطيع أن يفرق بين هذين الاثنين على كل حال؟ كما أن حكايات أبي لا تملك نهايات، وعلى السامع أن يكون وافر الخيال ليتمكن من إحصاء النهايات المحتملة. كنت أغتاظ من ذلك في البداية، وأحاول بطريقة ما أن أبحث عن نهايات القصص التي يحكيها بسؤاله مباشرةً، ولكن مع مرور الوقت، وبعد وفرة القصص المسرودة وملاحظة كل التقاطعات بينها، فقد مبدأ النهاية أهميته، وأدركت أن البدايات والنهايات مجرّد وجهات نظر في اختيار نقطة بداية السرد ونهايته. فالقصص لا بداية لها، ولا نهاية. وهكذا كان والدي لا يتوقف عن السرد، وكأنه يريد أن يؤكد لنفسه بأنه عاش حياة ما، ليست حياة جديرة بالاهتمام بالضرورة، ولكن حياة فحسب، وأن كل ما حدث لم يكن مجرد حلم. خاصةً قصص مرحلة الطفولة، تلك البانوراما المتفكّكة الحميمية، والتي تؤكد أكثر من أي شيءٍ آخر بأن ما حدث، وما يحدث، حقيقيّ.

لا أدرس في المدرسة مثل مبارك، ولا أحرس المدرسة مثل

والدي. لستُ بحاجة إلى المال. الجميع يعطيني ما أريد بالمجان. أبو مسعود الذي يبيع الآيس كريم يعطيني واحدًا كلما رآني أمشي بالشارع. كان يسألني دائمًا: على وين رايح؟ ثم أشير بيدي إلى آخر الشارع وأقول: هناك. وهذا كل ما أحتاجه لأحصل على آيس كريم. كنت أسهر طوال الليل على عكس مبارك ووالدي اللذين ينامان باكرًا، ثم أمي ونورة ينامان بعدهما بقليل. إن شعرت بالجوع دهنت لي خبزة بجبنة ولففتها وأكلتها على الفور، وأحيانًا أشعر بالملل فآخذ الخبزة الملفوفة وأذهب إلى فرع الجمعية حيث أجد أبوقيس -أو أبوكرش كما يسميه الصبية- يجلس خلف الكاشير يستمع للراديو وإصبعه يحفر في أنفه. أجلس بجانبه عادة وأشرع في الأكل مباشرة. كان يطيل النظر للساندويتش في يدي فأسأله: تبي؟ ثم يشيح وجهه ويردّ عليّ: لا. أحبه لأنه الوحيد الذي لا ينام الليل مثلي، ولست متأكدًا إن كان ينام الصباح مثلي أم لا إذ أني أكون نائمًا وقتها بجانب أختي نورة. يخبرني أحيانًا عن زوجته، يشتمها ويقول «شرموطة» وكلمات عديدة لا ترضى أمي أن أتلفظها في البيت. يقول إنها تطلب الكثير من المال. أخبرته أنه يأخذ المال طوال الوقت من الناس وجمعيته لا تنتهي أبدًا ودرج الخزينة الذي أمامه ممتلئ بها. يرميني بنظرةٍ سريعة ثم يتمتم بكلمات غير مسموعة لا ألقط منها إلا اسمي. أردد الكلمة ذاتها وراءه «شرموطة» لعله يسعد ولكنه عكس ذلك يغضب مني فأهرب منه مسرعًا. أبوكرش رجل طيب ولكني لا أفهمه.

كنت أستمع لقصص والدي لا رغبةً في معرفتها، ولكن لمعرفة أبي نفسه. فالقصة لا تكشف إلا ساردها فحسب، أما الحدث فله أشكال بعدد سارديه، ولذا لا أحد يمكن أن يتأكد تمامًا ما هي القصة. فمثلًا، كنت أراقب الإعجاب الكبير الذي يكنّه والدي لجراح المجرم. لم أسمع عنه حكاية واحدة تثبت هذا الجلال الذي يتصف به جراح هذا، ولكن مع ذلك تستطيع أن تلتقط نبرة الإعجاب كلما لفظ اسمه. كان على حد قوله: شيخ بين ربعه. ولكن ما سبب هذه السطوة؟ عرفت فيما بعد أن جراح حدث له النقل في الثالث الابتدائي لمدرسة أخرى، حيث كان أبي وجابر وخالد وسالم شلةً واحدة. كما أنه حدّثني، في مناسبة أخرى، عن كيفية انضمامه لشلّتهم. فذات مرةٍ كنت أجالس والدي كعادتنا في الديوانية، في الشتاء الأخير الذي عاشه، وكانت السماء تمطر وترعد في الخارج. كان الرعد يشعرني بالقلق دائمًا. سألت والدي بشكلٍ عفوي عن أكثر ما يخافه، فوجدته كعادته وقد استرسل بقصةٍ لم أربط بينها وبين سؤالي. القصة كانت تخصّ جراح عندما انتقل لمدرستهم. يقول بأنهم كانوا يلاحظونه وحيدًا في الفسحة، ولا يشتري من المقصف حتى. وفي مرةٍ رأوا محمد الطنطل يمرّ من أمامه، وما انتبهوا إلا وجراح قد انقضّ عليه ضربًا وخنقًا كذلك. لا بدّ وأن الجميع قد ارتعب حينها. من المفزع أن ترى منظر طفلٍ يخنق طفلًا. وجاءت تلك الحادثة وراء اسمه الذي أعرفه الآن: المجرم. ثم فهمت فيما بعد بأن جراح حصل على سطوةٍ مهيمنة، وهو من أطلق كل هذه الألقاب على

بقيّة الشلة. سألت والدي: وما كان لقبك؟ استطعت أن ألمح لمعةً بعينيه عندما قال: مبارك المدواج[1]. وهنا فهمت بأنه كان إعجابًا متبادلًا بينهما. لقد كان أبي جوالًا من صغره إذًا. يقول بأنه الوحيد بين الصبية من كان يعرف المنطقة بأكملها؛ الأزقة والباحات وأرقام المنازل. كان يتسكّع طوال الوقت بلا هوادة. حتى إنه يتحدى سوّاق المطاعم في تحديد اتجاه المنزل حال سماعه للعنوان كاملًا. ومع مرور الوقت، ضاقت عليه المنطقة، فشرد للبر. تلك الصفرة المتّقدة بلا نهاية كانت تشكّل لأبي غوايةً لم يستطع حتى أيامه الأخيرة الإمساك عنها. عاشقُ المكان وجد فردوسه في مكانٍ لا ينتهي كالصحراء.

يقول والدي بأن جراح أصرّ أن ينضم محمد الطنطل لشلّتهم. وصبيٌّ انطوائيٌّ كمحمد الطنطل، أو هيّاب على حد قول والدي، لم يكن ليرفض الانضمام لهذه الشلّة حتى وإن كان موضع سخريتهم. مما سمعته من القصص، أستطيع القول بأن والدي لم يجتمع بمحمد الطنطل يومًا لوحدهما، ولا يبدو أن أحدًا فعلها كذلك. كان محمد الطنطل مكروهًا بشكلٍ ما، وكلما سألوا جراح عن سبب وجوده معهم، قال بأنه مفيدٌ في تهريبهم من المدرسة. وبالفعل لم تكن عملية القفز من فوق سور المدرسة عسيرة كالسابق منذ انضمامه؛ كل ما على محمد الطنطل هو أن يشبك كفّيه بعضهما ببعض، فتعتليها أحذية الصبية واحدًا بعد

(١) المدواج: الجوّال باللهجة الكويتية.

الآخر، ثم يلحقهم بسهولة ودون الحاجة ليدٍ تحمله. سمعتُ قصصًا كثيرة عن محمد الطنطل بالذات؛ مرة دفعه جراح ليسرق ملابس أخته الداخلية لكي يبقيه في الشلة، ومرة جعلوه يقفز فوق سور بيتٍ له كلبٌ يحرسه دون علمه، ومرة ركضوا وتركوه في البر وحيدًا لا يعرف طريق العودة، والكثير من الحكايات التي جعلتني أتعاطف مع ذلك الطفل الطويل.

كلما مللت من التجوال في الفريج أهمُّ بالذهاب إلى سوق الفحيحيل، وللوصول إلى هناك يجب أن أفعلها على مراحل. أقف أولًا على الرّصيف وأبدأ أؤشر لأي سيارة ذاهبة في هذا الطريق. أحيانًا أتلقى بصاقًا من بعض الصبية الملعونين وهم يطلون من نوافذهم، وفي غالب الأمر تمرّ سيارات نظيفة وأصحابها يمعنون النّظر بي. السيارات النظيفة لا تقف أبدًا، فقط العربانات والكابريسات القديمة. بعض هؤلاء الرجال يريدون مالًا، ربع أو نصف دينار، وبعضهم لا يريد شيئًا سوى تزجية الوقت والضحك معي، يسألونني إن كنت مجنونًا فأومئ، يضعون إصبعين أمام وجهي ويسألون بابتسامة غريبة: هذا كم؟ وبعضهم يصمتون ويتلمسونني من كتفي إلى مؤخرتي ثم ينقلون أيديهم ويحكّون أحضانهم.

لم يكن والدي يتحدّث كثيرًا عن أخيه الأصغر. في الفترة التي بدأ بها الذهاب للبر مع شلّته، كان فهد يتعقبهم على الدوام. مما فهمته من كل هذا أن فهد لم يحظَ يومًا بصديق. ولذا كان

يرى في والدي، أخيه، مبارك المدواج، صديقًا له، أو على الأقل، يتمنى ذلك. ذكر أبي حكايات كثيرة كان يضرب فيها فهد كلما لحق بهم. ماذا سيقولون أصدقاؤه إن رأوا أخاه المجنون؟ إنها أشياء تُفقد المدواج شعبيته بالتأكيد، وتُنزل من قدره، ولذا كان يسحقه في كل مرة، يمسح بوجهه الأرض، ولكن فهد لم يملّ من المحاولة قطّ على ما يبدو، حتى أن جدتي، حسب رواية أبي، كانت تلاحظ آثار الضرب على فهد دومًا ولا تزجر والدي أبدًا، وكأن ما يحدث هو ما يجب أن يحدث تمامًا حتى يتعلم الصغير درسه، ولكن على ما يبدو أنه لم يتعلّم درسه يومًا.

كان والدي يقود الشلّة دائمًا إلى داخل البر لصيد الضبّان. يقول إنها رياضتهم المفضلة. لم يكن من الممكن القيام بتلك الجولات دون والدي كونه الوحيد الذي كما يعرف الناس وعناوين بيوتهم، كان يعرف الضبان وأين تقع جحورها. حتى جراح نفسه، لم يكن يجرؤ على الذهاب لولا والدي. وهكذا اكتسب شعبيته بدهائه في معرفة المكان، حتى أن بعض الصبية قالوا إنه يصاحب جن الصحراء، ويساعدونه، ولا يدرون تمامًا ما الذي يقدمه لهم في المقابل.

وذات يوم، ذهب والدي وبقية الشلة إلى البر، وكان فهد يتعقبهم بطبيعة الحال. بعد فترة من اللحاق اللامجدي ببعض الضبان، اقترح والدي أن يذهبوا إلى سوق الفحيحيل. كان ذلك اليوم نفسه الذي اقترح فيه والدي أن يتركوا محمد الطنطل وحيدًا

بالبر، وكانت له خطة. أخبره والدي أنه يعرف خدعة لرؤية وجه الله، وهي أن يغمض عينيه ويعد للتسعة والتسعين، على عدد أسمائه، وبعدها سيتجلى وجه الله أمامه. اتفق بقية الصبية على القسمِ بأنهم جربوها. صدّقهم محمد الطنطل، وفعلها. يبدو لي هذا المشهد واضحًا أكثر من غيره، وكأنني كنتُ هناك، وكأنني رأيته بعينيّ. أغمض الطنطل عينيه وراح يعد بسرعة تلهفًا لرؤية النتيجة، وما إن وصل للسبعين حتى تقاعس، وراح يعدّ بتردّد، وكأنه خائفٌ مما سيراه عند التاسعة والتسعين، وما إن فعل، فتح عينيه بشدّة، ولم يرَ أمامه إلا عراءً وخلاءً أصفر. يبدو لي أنه سأل نفسه: أهذا هو الله؟ تلفّت، وإذا ببقية الصبية قد اختفوا. وثب في مكانه وراح يتلفّت، يبحث، لا عن الله، ولا عن أصدقائه، ولكن عن طريق العودة الذي بدا أنه لا يحمل أدنى فكرةٍ عنه.

عندما ترجّل الصبية عن الباص العمومي في محطة الفحيحيل، كانوا لا يزالون يضحكون على ما فعلوه بمحمد. إلا أن جاسم توقّف فجأة أمام صبيٍ آخر، طويل، ظنّوا أنه محمد الطنطل لأول وهلة، ولكن نظراته كانت شرسة تجاه جراح الذي بدا مرتعدًا في مكانه وهو يعض إصبعه. شنّ شجارٌ صاخب بين شلة والدي وشلة هذا الصبيّ الطويل، نُقلوا على إثره للمستشفى لكثرة الدماء والطعنات بالسكاكين التي وقعت. أكثر ما استنكره الصبية كان ذعر جراح من هذا الصبي، والذي اكتشفوا فيما بعد أن اسمه عبدالله، وأنه من مدرسة جراح القديمة. استغرب

والدي كون جميع أهالي أفراد شلته قد أتوا ليأخذوا أطفالهم، ما عدا عائلته. لم يجب أحدٌ على هاتف المنزل، وظلّ هناك ساعاتٍ طويلة حتى أتى أحد أبناء عمه لأخذه، ليكتشف لاحقًا بأنهم وجدوا أخيه فهد جثةً هامدة في البر.

أنا بطل فيلم يظهر على التلفزيون. الفيلم ما زال في بدايته، ولكن أحدهم أغلق التلفزيون. هل هذا يعني أن البطل لا يتابع فيلمه الآن في الظلمة؟

لم يفقد والدي قدرته على المشي تدريجيًا فحسب، بل بدأ يتعثّر كذلك أثناء تجواله في محطات حياته. فمع الأيام، بدأت أشعر بأن ذاكرة أبي بدأت تخذله. راح يخلط الحكايات بعضها ببعض، ثم شرع يحكي أحداثًا طويلة بتفاصيلها الدقيقة، ولكن دون أن يتذكر حدثت لمن. وذات يوم أعاد سرد حكاية جراح لي، ولكن هذه المرة قال إنه كان سالم، وليس جراح، ولكن لمعرفتي بالشخصيات التي يتحدث عنها، أُدرك أن الحكاية الأولى هي الحقيقية، وليست الأخرى.

اللخبطة في حكاياته جعلته يرتبك، يتردّد، يحاول أن يقبض على خط السرد ولكنه يفلت دومًا. يظلّ يحاول طوال النهار أن يقول قصةً ما ويفشل. مثّلت بأني أفهم ما يقول، وأحيانًا أعينه في التتمة إذ بدأت آلفُ أدواته السردية، وأتقنها. ولكن ذلك لم يطل كثيرًا. بدأت الأيام التي أضحى فيها السكوت أطول من الكلام، والخيال أوسع من الواقع. لم يُحرم من التسكع في

الصحراء فحسب، بل سُلب من قدرته على التسكع في ذاكرته كذلك. كان من شأن كل هذا أن يجعله يشيخ في غضون أسبوعٍ واحد، يضمحل، كإناءٍ خُرم وراح ماؤه يُفقد شيئًا فشيئا.

مات أبي في ذلك العام ذاته. أُقيم عزاؤه في ديوانيتنا، حيث كان يفترش مطرحه الأرضي وينام. امتلأ الديوان بأناسٍ لا أعرفهم. أكثر ما أثارني كان منظر المعزين كبار بالسن، وهم يتأتئون بتعازيهم ويستندون على أكتاف أبنائهم أو أحفادهم للمشي والحركة. رأيت والدي على وجوههم الجافّة، فشعرت بحرارة في صدغي ورقبتي. أيكون من هؤلاء أحد أبطال قصص والدي؟ لست متأكدًا من ذلك، إذ أن الضيوف هنا يأتون ليقدموا التعازي ويرحلون، دون التعريف بأنفسهم أو الإشارة إلى ذلك. ذكرني هذا بطريقة أبي في سرد شخصياته؛ ثمة معرفة مبطنة بين الجميع، وفكرة التعريف هنا تبدو وكأنها تحطُّ من قدر المرء.

لم يمت أبي وحده، بل مات معه خالد الرخمة وجراح المجرم ومحمد الطنطل وسالم الرزين وجابر الخبل وفهد المجنون وحتى مبارك المدواج نفسه. شعرت بأني فقدتُ زمانًا بأكمله، لا شخصًا بحدّ ذاته. فقلت في نفسي: هذه هي أهمية القصص؛ الحفاظ على العالم من النسيان.

قطع أفكاري دخول جارنا بوصلاح. احتضنني بحرارة وقدّم تعازيه، فمسكت بيده وقلت له أننا لسنا بحاجة للكرسي المتحرك بعد الآن، وأن عليه أن يسترجعه ما دام أنه ذكرى من والده الراحل.

وبالتالي تركت الديوانية متوجهًا إلى المخزن. أردت أن تساعدني الخادمة المنزلية على إيجاد الكرسي، ولكنها كانت مشغولة في شؤون عزاء النساء، ولا سبيل كذلك لمناداة أمي في مثل هذا الوقت. ولذا ذهبت إلى المخزن للبحث عن الكرسي المتحرّك بنفسي.

لا أذكر المرة الأخيرة التي دخلت فيها هذا المكان. كان مصباح المخزن لا يعمل، ولكن بعضًا من ضوء الشمس كان يتسلل من النافذة العلوية. استطعت من خلال الأشعة الساقطة ملاحظة حبات الغبار المتطايرة في الجو وبعض الأشياء المتكدسة فوق بعضها بعض بلا نظامٍ معين. انتظرت قليلًا حتى اعتادت عيناي على الظلام، وراحت الرؤية تتفتّح لديّ بالتدريج؛ أوانٍ معتقة، كراتين مصففة، مفروشات تالدة، أجهزة كهربائية لا تعمل، ورأيت أخيرًا الكرسي المتحرك مرميًا في آخر المخزن. اقتربت منه وجررته نحوي فتسببت بضجيجٍ عالٍ وتساقطت بعض الأشياء القديمة التي كانت مستندة عليه. تفشى الغبار ورحت أسعل وأنا أحاول أن أرتب الفوضى التي تسببت بها. وما إن تفشى الغبار حتى رأيت أي فوضى كانت أمامي؛ إنها عصيّ أبي، نحو ما يقارب عشرًا أو أكثر، مرميَّة على الأرض خلف الأشياء التي تهاوت.

جلست على الأرض لا رغبةً مني، ولكن لأن قدميَّ لم تعد تستطيعان حملي. لا أدري أكان السعال أم الغبار أم المشهد أمامي من تسبب برطوبة عينيّ لحظتها، ولم أملك وقتًا طويلًا للتفكير بالأمر إذ استمعت لصوتٍ من خلفي. التفت، وإذا بأمي واقفة،

متشحة بالسواد، متجمدة بلا أي كلمة. كان المكان مظلمًا، وكانت النافذة الصغيرة تقع على الجدار من خلفها، وبالتالي هيئتها المظللة هي كل ما كنت أراه من مكاني وأنا رابضٌ على الأرض. لم أدرك كم كانت أمي طويلة قبل هذه اللحظة. قالت بصوتٍ لا يبدو أنه بكَى على الإطلاق: لا تتسبب بالضوضاء في عزاء والدك. نظرت لها، محاولًا أن أقول شيئًا، ولكنّ لساني كان أكثر جفافًا من أن يتحرّك. أضافت: سأنادي العاملة المنزلية لترتب الأشياء وتعيدها لمكانها، ارجع للديوانية وقف في عزاء والدك. عادت الرطوبة للساني، حركت فمي لنشر اللعاب على جدار حلقي، وسألت: لم عصيّ أبي هنا؟ قالت أمي مردّدة بصوتٍ حازم: قلت لك، لا تتسبّب بالضوضاء في عزاء والدك. وقبل أن ترحل، التفتت لي وأضافت: هل قابلت خالك محمد؟ إنه في الديوانية. سألتها وأنا لا أكاد أصدّق ما يجري من حولي: ألي خالٌ اسمه محمد؟ فقالت بصوتٍ بدا أكثر شيخوخة: كان خارج البلاد لسنوات، وعاد للتو، إنه طويل، لا تستطيع أن تخطئه.

عدت للديوانية شاحب الوجه على ما يبدو، إذ كان المعزّون أكثر تعاطفًا معي الآن، ولم أستطع أن أرد على عبارةٍ بسيطة مثل «عظّم الله أجرك»، وكنتُ عوضًا عن ذلك أتمتم بأحرفٍ متشابكة لا معنى لها، وعينايَ تمسحان الحضور رأسًا رأسًا بحثًا عن أطولهم، حتى وجدته أخيرًا ينظر في عينيّ مباشرةً.

ما إن التقت نظراتنا حتى قام بهدوء واقترب مني. نظرَ في

عينيَّ عميقًا وقال: أحسن الله عزاك يا فهد. وخرج من الديوان بخطواتٍ ثقيلة. احتجت بضع ثوانٍ لأتمكن من استيعاب ما يحدث، وما أن رجعت لوعيي حتى لحقت به مباشرةً. تخلّفت عنه إذ اعترضني في طريقي للخارج بعض المعزين يستفسرون عن أمورٍ مثل العشاء وصَبِيّ الشاي والقهوة، ولكني تمكنت من التملّص منهم فخرجت من الحوش ووقفت أمام باب المنزل على الرصيف، أفتش عنه. لم يكن من الصعب رؤيته فقد كان طويلًا بشكلٍ لا يمكن أن تخطئه. لقد كان طنطلًا حقيقيًا.

لمحته يقف على الرصيف المقابل، متكئًا على سيارة جيب أسود، يمسك سيجارة ويعبث في هاتفه. اقتربت منه وقلت: لم أدر بأن لك وجودًا خارج قصص والدي. رفع رأسه ورأيت وجهًا لم أستطع، وحتى بعد أربعين عامًا من الحادثة، أن أنسى تشكيل ملامحه. أكان جزعًا، أم غاضبًا، أم فرحًا، لم أستطع بالضبط تحديد الكلمة المناسبة لهذه السيماء. كان له وجه أمي، ولكن بذقنٍ أبيض، متناثر بتوزيعة غير سوية على صدغه، وشنبٍ طرفاه ينتهيان قبل طرفي فمه. أستطيع أن أجزم بأن الالتواء في عظمة أنفه مستحدثة، ولم يولد بها. كانت يداه ترتجفان، لاحظت ذلك من السيجارة غير المشتعلة بين إصبعيه. يتلفت كثيرًا كمجرمٍ متخفٍ، وينظر في عينيّ عميقًا بشكلٍ لم أطمئن له، كمن يبحث عن شخصٍ يعرفه مختبئٍ في داخلي. سألت: ما الذي يحدث هنا؟

وكما لو كان سؤالي من رفع السدّ، تدفّق حديثه تباعًا بلا

توقّف ولو لنفسٍ واحد: أتعرف ما الذي يحدث؟ هم يقولون أني قتلت فهد. قتلت فهد. قتلت فهد. سبعة وأربعون عامًا وأنا لا أسمع إلا هذه العبارة اللعينة. أنت فهد، ولد مبارك المدواج، اسمع! لازم تسمع! كان حَر. والله حَر! ألا تفهم؟ تعرف أمك من أبوك في الحَر؟ ملح! ملح اللهم يا كافي. عرق ودموع، تعرف ولا ما تعرف؟ الطنطل ذهب. الطنطل رجع. الطنطل ملعون أبو والدينه! الطنطل ليس مجنونًا. إنه كمن يخبرونك دائمًا بأنك ترتدي غترة، رغم أنك لا تذكر بأنك رأيت غترة في حياتك، وتستطيع أن تشعر بلسعة الشمس تحرق جلدة رأسك، ولكنك لا تملك إلا أن تصدقهم من شدة ما قالوا لك: أنت ترتدي غترة!

حاول أن يشعل السيجارة، ولكنّ يديه كانت ترتجفان بشكلٍ هستيريّ، وكما لو أنه نسي أنه أراد أن يشعلها، صرف النظر عنها وتابع حديثه: تركوني. تركوني لعنة الله عليهم. وفهد هناك. تتخيل؟ خذ دقيقة من وقتك، وتخيّل!

إن ساعدتني قصص والدي في شيء، فهي قدرتي على التخيّل. ارتعدت، وبدأت أتصوّر، أو أتذكر، لا أدري تمامًا. في اليوم الذي تركوا فيه محمد الطنطل في البر ورحلوا، كان فهد يتبعهم كذلك كعادته. لم يستطع اللحاق بهم، أو ربما تخلّف عنهم بإرادته إذ كان يريد أن يرى وجه الله كذلك، فانتظر، وضاع هو الآخر. أستطيع أن أتخيل المشهد. كان الجو حارًّا، ولا صوت في الأرجاء إلا صفير الريح وصياح محمد الطنطل. اختلط العرق

بالدموع وشكلا طبقة مالحة كثيفة على سحنة محمد الصغير المرتعبة. وهناك، وراء التلة، كان فهد يراقبه، متردّدًا بكشف نفسه. فقد يقول الآخر لمبارك الذي سيبرحه ضربًا إن علم أنه كان يلاحقهم. ولكن ما العمل؟ إنه لا يعرف طريق العودة. لا بدّ أن نورة ستحميه، وحتى إن لم تكن هناك، فالضرب نتيجةً مقبولة أكثر من الضياع في الصحراء. ولكن فهد لن يفكر بهذه الطريقة. لا. ربما رآها فرصة ليكون صديق محمد الطنطل، واقعة ستجمعهما معًا، وسيسهّل ذلك من انضمامه لبقية الشلة، والأهم من كل ذلك أن مبارك المدواج سيقبله أخيرًا كأخ. وبالتالي كشف عن نفسه، واقترب من الطنطل وهو يبتسم. فما كان من الآخر المرتاع، بقلبٍ صغيرٍ محروق، إلا أن أخذ أقرب حجرٍ وشقّ رأس فهد الذي يشبه رأس مبارك اللعين.

ثم استطرد خالي: نورة تمسك بالسكين، تصرخ أمام باب بيتنا: حمر! حمر! وأبوك يقسم على رأسي. وأبناء عمه. والشرطة. والعالم. يلعن هذا العالم يا رجل! لا، فهد لم يمت. قالوا هدنة. أخذوني لدور الرعاية ولكن الجميع يريد رأسي. أُطلق سراحي بعد سنوات وسافرت مباشرةً إلى البصرة، حيث أخوالي وأهل أمي. عشت عمري كله هناك. هل تتخيل؟

وتخيلت. ها هي نورة تركض في الشارع، تحمل بيدها سكينًا طويلة، تعدو نحو بيت محمد الطنطل الذي يقبع على بعد شارعين. تركض حافية القدمين على ما يبدو. الإسفلت يغلي،

تمامًا مثل رأسها وهي تنادي وتتوعّد وتقسم برأس أمها وأبيها لتقطعنّ رأسه. كيف لها أن تنسى احمرار الدم المنسكب من رأس فهد؟ أمسكوا بها وهي تجري، صرخت، كادت أن تؤذي الناس وهي مستعرة في الشارع، تطلب دم القاتل. ضربوها، ضربوها كثيرًا حتى اهتزّ رأسها، وفقدت ثقتها في والدي، وفي الناس، وفي العدالة، وحجبت الخلق عنها، وسكنت حجرتها لآخر عمرها. كانت تشتاق لفهد، وكنتُ أهرب منها كلما رأتني بسبب قصص أمي. لقد مات فهد أمام نورة مرتين. مرة قتله الطنطل، ومرة قتلته أخت الطنطل.

تابع خالي وهو يحاول أن يشعل سيجارته من جديد: لا، فهد لم يمت. ومبارك زوجوه.. عفوا، أعطوه ولم يزوجوه! إي والله، أعطوه أختي لكي يعيد فهد مرة أخرى. لكي يحصل هذا الفهد على فرصة ثانية، فرصة أفضل! وها هو أنجبك أنت. فهد ثانٍ. فهد جديد. فهد صاحي! أنهيت الثانوية، وستدخل الجامعة؟ يا لها من حياة. وأنا؟ شوفني. تتخيّل؟ تتخيّل؟ لا والله، لا يمكنك أن تتخيّل.

ثم رمى السيجارة غير المستعملة، ورحل، مردّدًا: لا والله، لا يمكنك. لا يمكنك.

نعم حصلت على فرصةٍ أخرى. ولكن لا أحد يدري، ولا أنا نفسي أدري. أعيش الآن كنسخة متخفية. مبارك المدواج لم يعرفني. ظنّ أنني لن أعود أبدًا. قضى أخي حياته بالتسكّع في

الصحراء للبحث عني، للبحث عن أخيه الصغير الذي أضاعه، للبحث عن المغفرة قبل الموت، للبحث عن وجه الله الذي رأيته أنا ومحمد الطنطل. ولكني كنتُ هنا طوال الوقت، في البيت، أنتظر. كان يقبع في ماضيه، وكنت هنا، أقبع في حاضره. كان الذنب أكبر من أن يجعله يفتح عينيه. انتظرت طويلًا ولم يعرفني. وهكذا نسيته، ونسيتني. لقد ضاع فهد أمام مبارك مرتين. حيوات متداخلة. أمورٌ معقدة. لم أرحل، ولم أرجع، ولكني معلّق.

بعد تلك الحادثة، قدّمت مباشرةً على بعثة خارجية إلى جامعةٍ في تيكساس لدراسة هندسة البترول، وسافرتُ فورًا عندما حصلت على القبول. سمعت أن خالي سكن مع أمي في بيتنا أشهرًا قليلة، ثم عاد للبصرة إذ لم يستطع أن يعيش في الكويت أكثر من ذلك. أنهيت دراستي في غضون أربع سنوات ولم أرجع. عشت في الولايات المتحدة الأمريكية دون تواصلٍ مع أمي، والتي يبدو أنها عاشت سنواتها الأخيرة وحيدة، بلا زوجٍ ولا ابنٍ ولا أخ.

لم أحضر عزاءها عندما توفيت، ولكني رجعت بعدها بأشهرٍ لبيع المنزل. لم يحتمل الأمر المزيد من التأجيل. فمهما طال هروب المرء، تظل العودة قضيةٌ محسومٌ أمرها، بشكلٍ أو بآخر. كنت أشعر بالخوف كلما تذكرت الكويت، لا أدري مما، وربما كان ترددي بالعودة هو خشيتي من معرفة ما يخيفني. ما إن وقفت

أمام باب البيت حتى لاحظت أثر الزمن على المكان. كل شيء كان خاملًا تحت طبقاتٍ من الغبار والأعشاب الصغيرة، وكانت الأرض مليئة بإعلانات المطاعم والجرائد المجانية والكتلوجات الدعائية، والجدران مغطاة ببطاقات النجارين والمصبغات وعمال الصيانة، وصبغ الباب الأسود كان قد تقشّر وتلاشى نهائيًا. كل شيء بدا مندثرًا لدرجة أن الذاكرة تستعصي جلب شكله القديم من جديد. لقد كان المنزل تجسيدًا صريحًا لقابليتنا على الخراب.

لمحت جارنا، بوصلاح، على رصيف منزله وقد شاب وأضحى يجلس على كرسيٍ متحرك، الكرسي ذاته الذي استخدمه والده ووالدي. كان ابنه يقف بجانبه، يفتح صنبور المياه ويسقي السِّدرة الفارعة أمام منزلهم. اقتربتُ، وكان بوصلاح ينظر لي بحياد، وكأنه ينظر من خلالي للشارع من خلفي. ألقيتُ التحية، فرفع عينيه تجاهي بصمت. ردّ ابنه صلاح: السموحة، توقّف أبي عن الكلام منذ فترة. نظرت له، وكان لا يزال ينظر لي وكأنني غشاوة شوهّت المنظر من أمامه. رفعت عيني تجاه صلاح، ثم أنزلتها مرة أخرى لبوصلاح. الابن يسقي الشَّجر، والأب يجلس عاجزًا على كرسيٍ متحرك؛ يا له من منظر.

دنوتُ منه وقبّلتُ رأسه، ورحلت دون أن أدخل بيتنا. بعتُ المنزل لأول مشترٍ وتركت الكويت ورائي إلى الأبد. ولكن الصحراء كانت تتبعني. لم تختلف صحراء تيكساس عن صحراء الكويت كثيرًا. كلاهما أصفر، فاقع الصفار، ومثقلٌ بالزَّيتِ

الأسود القديم في باطنه. إنها أراضٍ تتجرّع الماضي في داخلها. إنها الذاكرة التي تضحي رؤية، والجين المسافرُ أبدًا عبر الأجيال. إنهم الآباء وأزمنتهم السالفة، ودورة الطاقة الكونية التي لا تنتهي.

أبناء الأزمنة الأخيرة

فيصل الحبيني

بدأ يفكّر بحياته، وبكل الذي سيخوضه هذا الرضيع. أراد أن يعيد أهم محطاتِ أيامــه حتى يخرج مـنها بقيمةٍ، شيء يستحق أن تدفعَ الرعب الذي يطلبه العيش كثمنٍ له، ولكنه ارتبك عنـدما لم يسترجع إلا عددًا لا نهائيًا من العصريات التي كان يجلس بها في الديوانية، حيث الأضواء مطفأة، أشعة الشمس الناعسة تمرّ من خلال النافذة العملاقة، يجلس على الكنبة الأرضيّة، يشرب الشـاي والقهوة، ولا يفكّر بشيء، وكأنه ينتظر حدوث شيء ما. ربما إن سأله الصغير الآن: كيف ستكون الحياة؟ سيخبره هـزاع: عصريات عديدة خالية، وانتظار لشيء لن يحدث. يا لهذه الكآبة، سيقول الطفل، هذا ما خرجـت منه في حياتك، هذا ما ينتظرني؟ وسيخبره هزاع بأن المرء لا يخرج بشيء بتاتًا، هي لحظات قليلة تتـذكرها في النهاية، ذكرى لك وأنت جالسٌ وحدك في مكانٍ ما، ذكرى فحسب، قد تكون خيالًا، لن تتأكد أبدًا، إنها لحظات ورؤى هشّة لا تستطيع تمييزها حتى. وعندما تموت؟ يسأل الطفل. سيجاوب هزاع بأنهـم درّسوه عن ذلك، في المرحلة المتوسطة ربما، قيلت حكايات كثيرة ولكنه غير مطمئن، وبالكاد يتذكر.

إضاءة صورة الغلاف: عبدالعزيز البلام
تصوير وتصميم الغلاف: يوسف العبدالله

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

9 789996 698941

+965 98810440
@TAKWEENKW